مكتبتنا العربية

المجلد الثامن عشر

مجلة الأزهر

تصدر شهريا عن مشيخة الجامع الأزهر الشريف

مكتبتنا العربية

مجلة الأزهر

المجلد الثامن

مدير المجلة
ورئيس تحريرها
محمد فريد وجدي بك

الاشتراك السنوى

ثمن العدد

ادارة المجلة : بديوان الإدارة العامة

مطبعة الأزهر
١٩٤٧

مكتبتنا العربية

فهرس

الجزء التاسع

بحث	صفحة
[illegible]	٧٨٥
[illegible]	٧٨٩
[illegible]	٧٩٤
[illegible]	٧٩٩
[illegible]	٨٠٤
[illegible]	٨١٢
[illegible]	٨١٩
[illegible]	٨٢٤
[illegible]	٨٢٨
[illegible]	٨٢٩
[illegible]	٨٣٠
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	٨٥٧
[illegible]	٨٦٢
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]

مكتبتنا العربية

مكتبتنا العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسلام والعمران

يشيع أعداء العقائد أن الاديان والعمران لا يتفقان ، لا لأن الاديان لا ترفع رأسا بالحياة الدنيا فحسب ، ولكن لأنها تنطوى على غرض خطير وهو نشر دعوتها فى العالم أجمع ، وإعلان الحرب على كل أمة لا تدين بدينها متى تسنى لها ذلك . وقد عرف من تاريخ الأمم أن الحروب الدينية كانت كوارث على العمران العالمى ، وقد فنيت أمم برمتها فى سبيلها ، وسقطت حضارات كانت مفاخر للجماعات التى أقامتها ؛ كل ذلك كان فى سبيل التخالف فى العقائد بين الأديان المحرفة .

ليس يعقل أن يحمل دين إلهى أهله على الإسراف فى قتل المخالفين لهم فى العقيدة ، والذهاب فى اضطهادهم والتمثيل بهم الى أبعد حدود الوحشية ؛ ولكن رجال الدين هم الذين كانوا يحثون على أتباعهم فيوهمونهم بأن هذه القسوة فى معاملة أعدائهم تقع عند الله موقع القبول ، ويكتب لهم عليها حسنات ينعمون بها فى حياتهم الخالدة .

كان هم الأمم قبل الاسلام أن يغزو بعضها بعضا ، إما لسلب بعضها بأيدى البعض الآخر من الأموال والذخائر ، واتخاذ الأسرى وتسخيرهم فى الأعمال ، وإما لضم بلادهم أو بعضها الى بلادها إشباعا لنهمة عاهلهم فى امتداد السلطان واتساع رقعة الملك .

فكان إذا وقعت الحرب بين أمتين انقطع ما كان بينهما من علاقات ، لا الى مدى معقول ، وفى حدود الانسانية ، ولكن الى الوحشية المجردة من كل عاطفة ، والقسوة التى ليس لها حد تقف عنده ؛ فن حرق الزروع ، وهدم المدن ، وإبادة ماحوت من آثار ، الى تقتيل الأسرى ، ونهب دور غير المحاربين ، والعدوان عليهم بكافة ألوان الإرهاق والتعذيب .

على هذا الوجه ساءت العلاقات بين الأمم والشعوب ، وإلى هذا الحد بلغت

مكتبتنا العربية

الأحقاد الدفينة بين الجماعات ، كأن بينها تِرات موروثة من مئات السنين ؛ فان كان حظ الرقى الذى اكتسبته الانسانية من الحروب انتقال مايكون لدى الأمم المقهورة من أسرار الصنائع والعلوم إلى الأمم الغالبة ، وانتشارها على هذا الوجه بين الشعوب ، فان ما خسرته هذه الانسانية من تضاغن هذه الجماعات المتناحرة وما جرته من التخريب ، زاد على ذلك الكسب أضعافا مضاعفة ، واقتضى أن يجمد العالم على حالة واحدة آلافا من السنين .

وقد دلت الحرب الماضية والتى سبقتها على أن شنشنة الأمم فى حب تخريب العمران ، لا تزال على ما كانت عليه ؛ فقد رأينا الأمم المتمدنة تجاوزت بآلاتها الجهنمية ضرب المحاربين ، الى تخريب دور الأهلين ، ودفنهم تحت أنقاضها بتسليط أسراب جهنمية من الطائرات عليهم ، وما كان يدور بخلد أحد قبل نشوب هاتين الحربين بأن المتمدنين يبلغ بهم التحاقد مع وحدة دينهم ومدنيتهم الى حد التفكير فى إبادة بعضهم بعضا ، وهدم عمرانهم وتذرية أنقاضه فى ذيول السافيات !

جاء الاسلام والدول العالمية على ما وصفت ، وقد شوهد أن العالم غير الاسلامى لا يزال عليه ، فألحى على الفساد فى الأرض إلحاء ، فى عبارات مؤثرة ، وألوان من البيان ، اقتلع جذور هذه الوحشية المتطرفة من قلوب أهله ، وأحل محلها إنسانية لا تعدو عليها الاعتبارات العدائية ، ولا تبلغ منها الاحقاد الموروثة كائنة ما كانت .

اعتبر القرآن الفساد فى الأرض من الجنايات الاجتماعية الكبرى ، وحذر أهله منها فى آيات جمة ، ووصف مرتكبيه من الأفراد والجماعات بأوصاف لا تدع لمن فى قلبه أثارة من الانسانية ، ميلا الى ارتكابه مهما تخيل وراء ارتكابه له من الفوائد .

حرّم الاسلام الفساد فى الأرض ، كما حرم الفسق والسرقة وجميع الجرائم الشنيعة ، والآثام الذميمة ولم يستثن ؛ ومراد الله من ذلك واضح وهو أنه أعد المسلمين لأن تؤول اليهم خلافة الأرض ، كما آلت الى الدول الكبرى قبلهم ، وأنهم فى طليعة عصر جديد من حياة البشرية ، وفى حاجة الى مبادىء وأصول

مكتبتنا العربية

من النوع الذى سيجدون الحاجة ماسة إليه فى سيرتهم وهم يتحملون التبعات العالمية التى ألقتها الأقدار على عواتقهم ، فأكثر الله لهم من ألوصايا الخاصة بوجوب احترام آثار العمران فى الأرض ، باعتبار أن العالم أمة واحدة ، وإن قضت عليها الجهالات بالانقسام والتفرق ، وأن مصيرها التوحد لا محالة ، وأن هذا العمران ليس بملك أمة واحدة ، ولكنه حق لجميع العالم ، فلاشاة جانب منه يعود بالضرر على العالم كله ، إن لم يكن إلا بتأخير ما سيبنى عليه من عمران أرقى منه ، فقد كفى به إثما مبينا .

وهنا يجب أن نسرد للقارىء بعض الآيات التى تنهى عن الفساد فى الأرض يرى فيها ما ذكرناه من معانيها بأجلى عبارة ، وأرفع بيان :

قال الله تعالى تشنيعا على المفسد : « وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد » والمراد من الحرث المزروعات . فالقرآن كما يحض على احترام حياة الناس يحض على عدم العدوان على المزروعات

وقال تعالى يذم قساة الفاتحين : « إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون» فهو ينبه ذويه بأن الفتح الذى قد تقضى به سنة الوجود لا يقتضى إفساد المدن وتحطيم عمرانها ، وإذلال أهلها ، كما كان يفعل الرومانيون من شد وثاق أشراف الأمة التى يفتحون بلادها ، وسوقهم كالأغنام الى عاصمتها ليجروا عربة النصر بين هتاف النظارة ، وما ينصب عليهم من إهاناتهم .

ووصف الله الفاسقين الذين أعد لهم سوء العذاب يوم الدين بقوله : « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض ، أولئك هم الخاسرون » . عهد الله هو ما عاهد أرواحهم عليه من الايمان به ، وقطعُ ما أمر الله بوصله المراد منه قطع صلات الأرحام والاخوة العامة بين الناس ، والافساد فى الأرض بازعاج أمن أهلها ، وإفقارهم ، وتخريب مدنهم ، وكل ما ينطبق عليه معنى الإفساد .

وقد وجه الحق جل وعز الخطاب الى هذه الأمة فقال تعالى : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتُقَطِّعوا أرحامكم » أى فهل يتوقع منكم أيها

مكتبتنا العربية

المسلمون أصحاب الدين العالمي العام إن ولاكم الله خلافة الأرض أن تفسدوا فى الأرض ، وتقطعوا صلات القرابة الانسانية بينكم ؟ ثم وجه سبحانه وتعالى الى الذين يجرءون على ذلك أشد ما يوجه الى الجناة الطاغين من الزجر ، فقال تعالى : « أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » .

ومما لا أحب أن أغفله من البيان عقب ما مر من هـذه الآيات ، هو أن من أدل الأدلة على أن هـذا القرآن مصـدره الوحى الإلهى ، أن كل هـذه التوصيات باحترام العمران ، وعدم الفساد فى الأرض ، صادرة من بلاد العرب وقد كانت على عهد نزوله تـكاد تـكون خالية من آثار العمران ، وكان العرب قد نسوا منذ أجيال أنه قد كان من قبائلهم من لها قدم فى العمران ؛ فـكثرة التوصية فى هذا الموضوع إشارة قوية من الحق الى أن المسلمين سيحتكون بالأمم ذوات العمران ، ويخشى أن يحملهم الورع على تحطيم ما يجـدونه من آثاره فى دور العبادة والملاعب والنوادى وغير ذلك ؛ وقد امتد ملك العرب إلى نحو ربع الـكرة الأرضية ، وصادفوا فيها من القصور والمؤسسات ودور العبادة ما لا سبيل الى حصره فتركوه على حاله . ولقـد صادفوا فى مصر من التماثيل والانصاب والأصنام ما كانت الأمم الموحـدة تعتبر تحطيمه من جـلائل الأعمال ، فتركها المسلمون على حالها لم يتعرضوا لها بسوء ، ولولا ذلك لخفى علينا من تاريخ الفراعنة ما لا يمكن الوصول اليه .

حقا إن هذا لمن العجب العاجب ، ولا سيما إذا أضيف اليه أن الأمم فى أول عهدها بدين جديد تبالغ فى التمسك به ، وتتشدد فى دحض كل ما عداه وإبطال دعوته ، والتعفية على آثاره ؛ فكان بناء على هذا يجب أن تغرق الأمة الاسلامية فى أول عهدها بالفتوحات فى تحطيم كل ما تصادفه لدى أعدائها من دور العبادة ، وما تقابله من النصب والتماثيل ، وتتعدى ذلك الى رجاله والقائمين عليه ، فتوغل فيهم قتلا وتعذيبا على سنة الأقدمين ؛ فظهور المسلمين فى أول عهدهم بالدين بهذا المظهر العالى من التسامح مع المقهورين ، وحماية معابدهم ومعاهدهم ، وإطلاق الحرية لهم فى القيام بأمور دينهم ، كل ذلك من الدلائل الباهرة على أن الاسلام هو الدين العام الذى يسع الناس أجمعين ؟

محمد فريد وجدى

مكتبتنا العربية

اجتهاد عمر رضى الله عنه

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز المراغى
الإمام الخاص لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

عرضنا فى المقال السابق لشىء من اجتهاد أبى بكر رضى الله عنه ، ومقدار ماوُهب من فطنة ودقة نظر وصلابة ، إلى أن أفتى فى حياة الرسول عليه السلام وبين يديه .

ونحن اليوم نعرض لدرس ألوان من الاجتهاد من عقلية من أكبر العقليات فى تاريخ الاسلام ؛ ولسنا نعدو الحق إن قلنا من أكبر العقليات فى تاريخ البشرية ؛ تلك هي عقلية الخليفة الثانى عمر رضى الله عنه ، ومؤسس الدولة الاسلامية بحق ، ومرسى قواعد التشريع والادارة على أمتن آساسها بحق .

ولعمر نواح ما أظن أحدا يستطيع أن يلم بشتى أطرافها ؛ فنواحيه مليئة بما شئت من فكر ، ومن عظمة ، ومن عبقرية ؛ وحسبك فى تلك العقلية إشادةً بذكر وتخليداً لمجد أن نزل القرآن الكريم موافقا لعمر فى شىء كثير مما ارتآه ، وما كان يحرص كل الحرص على أن يكون شرعا خالدا للمسلمين .

وقد ألف السيوطى رحمه الله رسالة فى هذا الموضوع أسماها : قطف الثمر فى موافقات عمر . ولا يزال نظام عمر الإدارى مثلا يحتذى حتى فى عصور النور كما يسمونها ؛ ولا تزال آراء عمر وما سنّ من نظم للضرائب والجبايات مثلا حقا لمن أراد العدل والنصفة فى التشريع ، وأراد التخفيف عن كاهل الممولين ، والتوفيق بين مصالح العمل ورأس المال .

ولم يكن عمر رضى الله عنه رغم هذه العقلية الجبارة النفاذة البصيرة ليستبد برأى يظن من الخير أن يشرك فيه غيره من أصحاب الحل والعقد ؛ روى البخارى « أن القراء كانوا أصحاب مجالس عمر ومشاوراته كهولا وشبانا » . وفى مسلم « أن نافع بن الحارث الخزاعى لقى عمر بعسفان ، وكان عمر يستعمله على مكة ، فقال : من استعملت على أهل الوادى ؟ قال : ابن أبزى ، قال : ومن ابن

مكتبتنا العربية

أبزى ؟ قال : مولى من موالينا ، قال : فاستخلفت عليهم مولى ؟ قال : إنه قارئ لكتاب الله عز وجل ، وإنه عالم بالفرائض . قال عمر : أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين » . والقراء يومذاك كلمة ترادف العالم اللسن العارف باللغة القائم لمرامي القرآن ولحن الخطاب؛ ولم تكن القراءة يومذاك صنعة كما هي اليوم ، وإنما هي صفة لمن توافرت فيه ما أسلفنا من شروط .

ولست ترى جانبا من جوانب الحياة للجماعة لم يجتهد فيه عمر ، حتى فيما نص عليه ؛ فقد جاء عيينة بن حصن يطلب نصيبه من الصدقات باسم المؤلفة قلوبهم ، فقال له عمر : « الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » فليس لمؤلف قلبه نصيب بعد اليوم » . وهو يرى أن التأليف إنما كان وللناس إليه حاجة لجبر ضعفهم ودفع المعرة عنهم ؛ أما وقد قويت شوكة الاسلام واستكملت الدولة نضوجها السياسي فليس لمنافق ولا لمداج ولا لخادع نصيب . وعمر كان حريصا كل الحرص على إبراز هذه الناحية وتوضيحها من وجهة نظر المسلمين ، ودفع تلك العناصر التي لا يجمعها شمل ولا يضمها عقد ، وليست من بابة واحدة ؛ وهذا هو السبب الذي دفع بعمر إلى إجلاء نصارى نجران وقد كانوا صالحوا الرسول على أن يدفعوا إليه الجزية مقابل أن يدفع المسلمون عنهم وأن يحفظوا لهم حرية عقيدتهم؛ ولما تولى أبو بكر أقر نصارى نجران على هذه المعاهدة ، ولكن لعمر رأيه وله وجهته وغايته في النظر إلى كيان الدولة السياسي ووحدتها القومية .

دعا عمر بعد توليه يعلى بن أمية ، وطلب اليه أن يجلي نصارى نجران عن ديارهم، وقال له : « ايتهم ولا تفتنهم عن دينهم » ثم أجل من أقام منهم على دينه وأقر المسلم وامسح أرض كل من يجلي منهم، ثم خيرهم البلدان، وأعلنهم أنا نجليهم بأمر الله ورسوله ألا يترك بجزيرة العرب دينان، فليخرج من أقام منهم على دينه، ثم نعطيهم أرضا كأرضهم إقرارا لهم بالحق على أنفسنا ووفاء بذمتهم فيما أمر الله من ذلك بدلا بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم من الريف » .

مكتبتنا العربية

وفى الحق لم يكن هـذا من عمر نقضا لمعاهدة أقرها الرسـول وأبو بكر من بعده .

والناس لا يقدرون مقدار وحـدة العقيدة وما لها من خطر ، خصوصا فى القـرون الوسطى ؛ وما نظن عصرنا الحاضر — عصر المدنية كما يسمونه — بدعا من ذلك ؛ فلا تزال بلاد فى الشرق والغرب تضطرم نيران الخلافات فيها ، نظـرا لاختلاف العقيدة ، سواء أكانت دينية أم سياسية أم مذهبية ؛ وشىء من الأناة فيما يقع اليوم بين الدول من اختلاف لا ندرى ما يؤدى اليه ، نظرا للخـلاف المبنى على فلسفتين فى الحياة الاقتصادية حلتا من القـوم فى الشرق والغرب محل العقيدة عند من تبنى حياتهم على العقيدة . هذا أمر ما نظن أحدا ليمترى فيه إلا إذا كان مكابرا للواقع والحس . وهل الحروب الصليبية إلا أثر من آثار الخلافات ؟ وهل حروب النهضة فى أوربا وما تلاها من الحروب إلا نتيجة مباشرة أو غير مباشرة لهذا الخلاف ؟ وحروب الردة قد علمت المسلمين أن يتنبهوا للأخطار الكامنة فى حياة الأمة الاسلامية ، لوجود عناصر لا تلائمهم فى العقيدة ، والمخالفون لهم لم يتركوا فرصة لم يغتنموها لاستغلالها ضد المسلمين .

وقد وُحدت الدولة بمجىء عمر ، ورسخت مؤسساتها ؛ وعمر لم يلجأ الى لون من ألوان العسف التى تستعملها الدول عند تبادل السكان وتبادل أراضيهم ، بل استعمل كل ما يمكن أن يقوم به مصلح إنسانى يرعى القانون قبل المصلحة الفردية ؛ ولم يكن النصارى ليضاروا بذلك ، فقد أعطوا أرضا خارج الجزيرة ، واستكملت لهم بذلك مصلحتهم ، كما روعيت مصلحة المسلمين . وكذلك كان أمر اجتهاده مع اليهود ، وهم قـد رأوا من شدته وحزمه وتصرفه فى الأمور ما لم يدع سبيلا للريبة فى نفوسهم بأن عمر فاعل بهم ما فعل لا رغبة فى الانتقام لأنهم مخالفون فى الدين ، وإنما هو معنى من معانى التنسيق للدولة وتوحيد عناصرها وتوجيه جهودها ؛ وإلا فقد بقى كثير من أهل الذمة على دينهم فى البلاد التى فتحها المسلمون لقاء دراهم معدودة من الجزية ضمنوا بها حريتهم فى العقيدة ، وضمنوا بها حماية جيش المسلمين .

وعمر كان يصدر فى هذه التصرفات والاجتهادات السياسية عن نفس منظم

مكتبتنا العربية

لا تبالى بشىء فى سبيل المصلحة . ولعل هذا هو السبب فى أن الرسول عليه السلام لم يول عمر شيئا من أمر السرايا التى استهل بها المسلمون عهدهم بالغزو والقتال ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من الخير أن يبقى عمر بجواره ، لما شهد من حسن رأيه وجميل سياسته . وقد روى فى ذلك « أن وفد نجران حين قدم المدينة يجادل رسول الله ونزل قوله تعالى: « قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » دعا الوفد الى قبول هذه الحجة أو الملاعنة ، ورأى الوفد أن يعود الى بلده ، وطلبوا من الرسول عليه السلام أن يبعث معهم رجلا حكما فيما شجر من خلاف بينهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ايتونى العشية أبعث معكم الحكم القوى الأمين . قال ابن هشام : إن عمر بن الخطاب كان يقول : ما أحببت الإمارة قط حبى إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت الى الظهر مهجرا ، فلما صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر سلم ثم نظر عن يمينه وعن يساره ، فجعلت أتطاول له ليرانى ، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه ، فقال : اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه » .

هذا يفسر لنا المنزلة التى يراها الرسول عليه السلام لعمر فى نفسه، وهو لا يرى أن يترك عمر المدينة مدة قد تدعو حاجة لوجوده والاستئناس برأيه؛ والرسول عليه السلام ما كان ليترك استشارة أصحابه فيما يحزبهم من أمر ؛ وقصة الأسارى فى بدر شاهدة على ما نقول ، وشاهدة على تلك الوجهة التى يراها عمر، وهو أن يقلل ما أمكن من دواعى الخلاف فى العقيدة بين الجماعة ؛ والعقيدة إذ ذاك واليوم أهم مقوم من مقوماتها ؛ وفى سبيل هذه العقيدة لم يتوان عمر يوم بدر فى قتل خاله العاص بن هشام ؛ وقد روى أن عمر التقى يوم بدر مع سعيد ابن العاص فقال له إنى أراك كأن فى نفسك شيئا ؛ أراك تظن أنى قتلت أباك وإنى لو قتلته لم أعتذر اليك من قتله ، ولكنى قتلت خالى العاص بن هشام ابن المغيرة ، فأما أبوك فأنى مررت به وهو يبحث بحث الثور بروقه فحدت عنه وقصده ابن عمه على فقتله .

مكتبتنا العربية

هذه العقلية المتأثرة بروح المحبة للجماعة، وروح الحفاظ على كيان الدولة، هى التى دفعت بعمر الى كثير مما اجتهد فيه من أحكام لمصلحة سياسية متصلة بالدولة أو بنظامها. ويجب أن نلاحظ أن كل شىء فى ذلك الوقت كان منصرفا الى تدعيم النظام العام، وتثبيت سلطان الجماعة على أى وضع كان، متى كان فى ذلك تقرير لدين الله وإعلاء لكلمته؛ وكل شىء فى سبيل ذلك هين مهما استدعى من بذل أو تضحية. وروح الجماعة متى استولى سلطانها على شىء كان التفكير دائما سليما؛ لأنه تفكير منزه عن الغرض، برىء من مصلحة الفرد، خاصة اذا نبع من عبقرية جبارة كعبقرية عمر.

وسنعرض فى المقال المقبل لطرف آخر من اجتهاداته؟

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

كلمات حكيمة

قال على بن الحسين بن على لابنه وهو يعظه:

يا بنى إن الله لم يرضك لى فأوصاك بى، ورضينى لك فحذرنى منك، واعلم أن خير الآباء للأبناء من لم تدعه المودة إلى التفريط فيه، وخير الأبناء للآباء من لم يدعه التقصير الى العقوق.

وقال عمر بن عتبة:

لما بلغت خمس عشرة سنة قال لى أبى: يابنى قد تقطعت عنك شرائع الصبا فالزم الحياء تكن من أهله، ولا تزايله فتبين منه، ولا يغرنك من اغتر بالله فيك فمدحك بما تعلم خلافه من نفسك، فان من قال فيك من الخير مالم يعلم إذا رضى، قال فيك من الشر مثله إذا سخط؛ فاستأنس بالوحدة من جلساء السوء تسلم من غب عواقبهم.

الاحسان الى البنات

لفضيلة الأستاذ الشيخ طه الساكت
المدرس فى الأزهر

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « دخلتْ عليّ امرأةٌ ومعها ابنتان لها تسأل ، فلم تجد عندى شيئاً غير تمرة واحدة ، فأعطيتها إياها ، فقسمتْها بين ابنتيها ولم تأكل منها ، ثم قامت فخرجت ؛ فدخل النبي صلى الله عليه وسلم علينا فأخبرتُه ، فقال : « من ابتُلى من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن ، كن له سِترا من النار » . رواه الشيخان .

وعنها رضى الله عنها قالت : « جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها ، فأطعمتُها ثلاث تمرات ، فأعطت كل واحدة منهما تمرةً ، ورفعتْ إلى فيها تمرة لتأكلها ، فاستطعمتْها ابنتاها ، فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها بينهما ، فأعجبنى شأنها ؛ فذكرتُ الذى صنعتْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « إن الله قد أوجب لها بها الجنة ، أو أعتقها بها من النار » . رواه مسلم .

* * *

هذان حديثان صحيحان ، اتفق الشيخان على رواية أولها ، وانفرد مسلم عن البخارى برواية آخرها . ويبدو لمن تأمل أنهما قصتان مختلفتان وإن تقاربتا لفظا ومعنى . وأجاز صاحب الفتح اتحادهما ، على أن يكون مراد الصدّيقة بقولها « فلم تجد عندى شيئا غير تمرة واحدة » أنها لم تجد سوى تمرة تخص الأم بها ، أو أنها عثرت على تمرة فى أول الأمر فأعطتها إياها ، ثم عثرت على اثنتين بعدها فأعطتهما إياها كذلك ، فيصرن ثلاثا . وفى هذا من التكلف ما لا يعنينا .

وإنما الذى يعنينا من هذه القصة أو القصتين — عدا ما نشير إليه بعد — عناية الاسلام بالبنت ، وترغيبه فى إكرامها والاحسان إليها ، وإعدادها لأن تكون أما صالحة ، تبنى أسرا كريمة ، وتنشىء أجيالا سعيدة ، من بعد أن أنقذها من حُفَر الوأد (١) وانتشلها من بؤر الذلة والمهانة !

---

(١) وأد بنته يئدها : دفنها حية ، وهى وئيد ووئيدة وموءودة . قاموس .

لقد جبل الناس قديما وحديثا على كراهية البنت ، حتى قالوا « دفن البنات من المكرمات (١) » . وقال عبدالله بن طاهر :

لكل أبي بنت يراعي شئونها ثلاثة أصهار إذا حمد الصهر
فبعل يراعيها ، وخدر يكنها ، وقبر يواريها ؛ وخيرهم القبر

وبلغ من كراهية العرب للبنت فى الجاهلية أن فريقا منهم كانوا يئدونها وهي طفل ، وكان أحدهم إذا دنا وضع امرأته استخفى عن الأعين حتى ينظر ما تلد له ؛ فإن كان ذكرا ابتهج واستبشر ، وإن كانت أنثى اغتم وتكدر ، وظل مستخفيا حائرا حتى يقضى فى أمر ابنته ؛ فإن بدا له أن يستحييها تركها حتى إذا كبرت ألبسها جبة من صوف أو شعر وجعلها ترعى الإبل والغنم فى البادية ، وإذا أراد أن يقتلها تمهل حتى إذا صارت سداسية قال لأمها زينيها وطيبيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ، ويكون قد حفر لها حفرة فى الصحراء ، فإذا بلغ تلك الحفرة التى أعد لها ، قال لها: انظرى إلى هذه البئر ، فإذا نظرت إليها دفعها من خلفها ثم هال التراب عليها ، ويزعم أنه هدم ركنا من أركان المعرة أو الفقر . وفى هؤلاء نزل قوله تعالى: « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم (٢) . يتوارى من القوم من سوء ما بُشر به أيمسكه على هُون أم يدُسه فى التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون » .

ومن آثار هذه الجاهلية الأولى ما نشاهد من غضب الرجل على امرأته إذا ولدت بنتا ، وربما ذهب به الجهل بالله والسخط على قضائه أن يطلق أمها ، كأنها التى صورتها وأنشأتها بشرا سويا ؛ ولم لا يخلق لنفسه إذاً وهو أقدر من المرأة وأقوى ؟ ! وهل وُجد هذا الجاهل على ظهر الأرض ، واشتم نسيم الحياة لولا المرأة ؟ ! ومن ذا الذى يدرى أىّ الأولاد خير وبركة ؟ فلرب جارية خير لأهلها من غلام ، كما نشاهد ذلك كثيرا ؛ وصدق الله « وعسى أن تكرهوا شيئا

(١) زعم بعض الرواة أنه حديث ، فان ورد فله وجه صحيح ولاسيما إن كانت البنت سيئة التربية فى زمن كله فتنة وفساد ، غير ان الأشبه به أنه موضوع كما قال بعض أئمة النقد . انظر كشف الخفاء .

(٢) ممتلىء غما وحزنا . وسواد وجهه كناية عن تغيره لما أصابه .

مكتبتنا العربية

وهو خير لكم ،وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

حارب الإسلام هذه العادة البغيضة المنكرة حتى قضى ، أو كاد يقضى عليها ؛ ولم يكتف بتهجينها وتقبيحها والقضاء عليها ، حتى دعا إلى إكرام البنت ،وبالغ فى طلب الإحسان إليها . ولقد أجمع المربون على أن أهدى سبل التربية ، وأقوم مناهج الحكمة ، ألا يقنع المربى باقتلاع رذيلة حتى يغرس مكانها فضيلة ، وألا يرضى بهدم منكر حتى يبنى على أنقاضه معروفا ؛ وذلك شأن سيد المربين ، صلوات الله وسلامه عليه ، فى محوه آثار الرذائل ، وإقامته معالم الفضائل ، ودعوته الى الحق ، وهدايته الى الرشد ، منذ بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق .

هذا ، والإحسان الى البنت درجات ، أدناها أن ينفق عليها وليها ، ويؤدى إليها حقها ، ويبرئ نفسه من التأثيم فى شأنها (١) ؛ وبدهى أن هذا كله ليس مراد النبى صلى الله عليه وسلم من الاحسان إليها فى هذا الحديث ، لأنه من الأمور العامة التى لا تستوجب هذا الوعد الكريم ، ويكاد الأولياء يتفقون فيها ، إن لم يكن لدافع من الحنان والرحمة . فللتبرؤ من تهمة التفريط فى التربية .

وإنما مراده صلى الله عليه وسلم أمر فوق هذا ، من الإيثار والمعروف وحسن الصنيع ؛ ولذا أشار الى إحسان المرأة بما آثرت ابنتيها وقدمتهما على نفسها . على أن هناك آثارا وروايات ، وإن لم تبلغ مبلغ هذين الحديثين منزلة ، تفسر لنا المراد من الاحسان وتوضحه ؛ ففى حديث ابن عباس عند الطبرانى أن هذه البشارة ، وهى الحجاب من النار ، لمن ولى من هذه البنات شيئا « فأنفق عليهن وزوجهن وأحسن أدبهن » وفى حديث أبى سعيد فى الأدب المفرد « فأحسن صحبتهن واتق الله فيهن » . وفى حديث ابن مسعود عند الطبرانى أيضا « من كانت له ابنة (٢) فأدبها وأحسن أدبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ،

(١) أثمه تأثيما : قال له أثمت .

(٢) هذا صريح فى أن فضل الاحسان وجزاءه يقع لمن ولى شيئا من البنات ولو واحدة فقط ، وتؤيده روايات أخرى .

مكتبتنا العربية

وأوسع عليها من نعمة الله التى أوسع عليه » . فهذه الآثار وما إليها دليل على أن الاحسان الذى يريده النبي صلى الله عليه وسلم لا يتم إلا بتعليم البنت وتأديبها والحدب عليها ؛ ولا سبيل الى ذلك إلا إذا نهج بها وليها منهجا قويما ، لحمته هذا الدين المتين ، وسداه خلق الاسلام الكريم . فأيما منهج سار على غير هدى من الدين الحنيف ، فليس من الاحسان الى البنت فى قليل ولا كثير ، بل إنه إساءة إليها من ورائها حساب عسير !

* * *

وبعد ، ففى الحديث جملة من الطرائف يجمل بنا أن نشير إليها ، لما تحويه من معان سامية ، وأدب رفيع :

فمنها تصدق أم المؤمنين رضى الله عنها بالقليل التافه حيث لم تجد غيره ، حرصا منها على الخير ، ومبالغة فى امتثال وصيته صلى الله عليه وسلم لها ، إذ قال : « لا يرجع من عندك سائل ولو بشق تمرة » رواه البزار من حديث أبى هريرة . وفى ذلك عبرة لمن يمتنع عن الصدقة لقلة ذات يده ، فان العدم أقل من القليل ، ورب حفنة من البر والشعير أزكى وأطهر عند الله من آلاف الدراهم والدنانير .

وفى خلو بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، أحيانا ، من متاع الدنيا على سعة ما أفاء الله عليه ، درس وعظة للأغنياء الكانزين ، وعزاء وسلوى للفقراء البائسين !

ومنها أنه لا حرج على أحد أن يذكر بره ومعروفه — قل أو كثر — ما سلم قصده من الأمراض النفسية كالمن والفخر والرياء وما إليها ، كما هو الظن بالصديقة أم المؤمنين ! فأما اختصاص البنات بهذه البشارة فلما فيهن من الضعف وانخفاض الجناح وشدة الحاجة إلى الرعاية والتهذيب ؛ أما البنون فلديهم ، فى أغلب الأحوال ، من قوة البدن وجزالة الرأى ، واحتمال الشدائد ما يغنيهم عن المبالغة فى الرفق والاحسان . ولعل هذا هو السر فى التعبير بالابتلاء (١) مع ما جرت به العادة من استياء الناس بولادة البنات !

(١) فى قوله « من ابتلى » الخ وفى بعض الروايات « من يلى » بالياء . وهى ظاهرة .

مكتبتنا العربية

وإذا كان فى حديثه صلى الله عليه وسلم هذا عظة لمن ابتلى بالبنات ، ففى ذريته الطاهرة أكبر العبر والعظات . لقد احتسب بنيه كلهم أطفالا صغارا ، ولم يجاوز طور الطفولة إلا بناته الفضليات ، فأدبهن وعلمهن وأحسن إليهن ثم اختار لهن خيرة الأزواج . ولم يعش منهن بعده إلا الزهراء . وقد كانت أسرع أهل بيته لحاقا به ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى من اهتدى بهديه فى مناهج التربية والآداب ؟

شىء من أخبار الخيار

قال رجل ليونس بن عبيد : هل تعلم أحدا يعمل بعمل الحسين ؟ قال يونس : لا والله ولا أحداً يقول بقوله !

قيل لمحمد بن على بن أبى طالب : ما أقل ولد أبيك ؟ فقال له محمد : العجب كيف وُلِدله . (يريد من استيعابه جميع أوقاته فى تدبير شئون الدولة والعبادة)

ولما ضرب سعيد بن المسيب (لتشيعه لذرية على) قالت له امرأة : لقد أقمت مقام خزية ! فقال لها سعيد : من الخزية فررت .

وشكا الناس الى مالك بن دينار القحط ، فقال : أنتم تستبطئون المطر ، وأنا أستبطىء الحجارة (يريد أنهم قد فسدت نياتهم وأعمالهم حتى استحقوا أن يرجمهم بالحجارة) .

وشكا أهل الكوفة إلى الفضيل بن عياض القحط ، فقال لهم : أمدبراً غير الله تريدون ؟ (يريد أن مدبر العالم أراد ذلك لحكمة يعلمها فقابلوا تقديره بالاحترام)

واجتمع محمد بن واسع ومالك بن دينار فى مجلس بالبصرة فقال مالك بن دينار : ما هو إلا طاعة الله أو النار . فقال محمد بن واسع : ماهو كما تقول بل ليس هو إلا عفو الله أو النار . قال مالك : صدقت . ثم قال مالك : إنه يعجبنى أن يكون للرجل معيشة قدر ما يقوته . فقال محمد بن واسع : ولا هو كما تقول ، بل يعجبنى أن يصبح الرجل وليس له غذاء ويمسى وليس له عشاء ، وهو مع ذلك راض عن الله . قال مالك : ما أحوجنى إلى أن يعلمنى مثلك .

أوائل المتكلمين من المسلمين

غيلان الدمشقى

لفضيلة الأستاذ الشيخ على مصطفى الغرابى
المدرس بكلية أصول الدين

لقد تحدثت فى مقالى السابق عن بعض آراء « غيلان » التى من بينها قوله بأن « الانسان مختار فى أفعاله وليس مجبورا عليها » ، وقد قلنا إنه مقابل لرأى جهم الذى يقول إن الانسان مجبور . وفى هذا المقال نريد أن نبين أولا موقف القرآن من هذين الرأيين ، وثانيا نتمم الكلام على غيلان .

أما أولا ـ فأننا نقول : لماذا لم يكن موقف القرآن صريحا فيما يتعلق بالجبر والاختيار ؟ أى لم يصرح لنا القرآن الكريم بأن الانسان مجبور على أفعاله ، وأنه لا اختيار له مطلقا ، وأنه كالريشة فى مهب الرياح ، كما لم يصرح كذلك بأن له الاختيار المطلق ؛ وإنما نراه يعبر تارة عن الانسان بما يفيد أنه مسلوب الاختيار ، ويعبر عنه تارة أخرى بما يفيد أنه مختار ؛ فمثلا يقول فى أول سورة (الانسان) : « إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » فإن من يقرأ هذه الآية يراها تدل بظاهرها على أن الانسان مختار فى أفعاله وليس مجبورا على إتيانها وفعلها ؛ لأنها تقول إننا أرشدناه الى الطريق المستقيم ، وهو بعد هذا البيان إما أن يتبع هذا الطريق المستقيم فيكون شاكرا ، وإما أن لا يتبعه فيكون كافرا ؛ فعلينا البيان وعليه أن يختار . بعد هذه الآية التى قلنا إنها تدل بظاهرها على أنه مختار نقرأ فى آخر السورة نفسها آية تدل بظاهرها على أنه مجبور . وهى قوله تعالى « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » . .

فمن هذا يظهر أن القرآن الكريم لم يقف بالانسان عند حد الاختيار

مكتبتنا العربية

المطلق ، كما أنه لم يقف به عند حد الجبر المطلق . كما رأينا فى هاتين الآيتين . وحينئذ يأتى هذا السؤال الذى قدمناه .

والجواب على هذا أن القرآن لو صرح بأن الانسان مسلوب الاختيار دائما لما كان هناك معنى للمسئولية ، ولو سقطت المسئولية لسقط الجزاء على الأعمال، فلا يكون هناك فرق بين المحسن والمسىء ، والله سبحانه وتعالى يقول : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون » .

ولو صرح بأن الانسان له الاختيار المطلق فى أفعاله حتى إنه يأتى كل ما يشاء ، ويقدر على كل ما يريد ، لكان فى هذا ما يشبه أن يكون مشاركة لله فى خلقه . على أن المشاهد أمامنا ، والحاصل فى هذه الحياة ، والذى يقع لنا فى أمورنا ، يكذب الجبر المطلق للإنسان، كما أنه يكذب الاختيار المطلق له . وإذا كان الله سبحانه قد أعطى الانسان جانبا من الاختيار وبهذا يكون خاضعا لوصف كونه مجبورا فى جانب آخر مقابل لجانب الاختيار فيه ، فما مدى هذا الجبر عنده ؟ وما مدى هذا الاختيار ؟ وإلى أى حد يكون مقدار الجبر عند الانسان ؟ وإلى أى حد يكون مقدار الاختيار عنده ؟

إن أمر اختيار الانسان أو جبره من المسائل التى تختلف فيها النفوس، ولا تتفق عليها ؛ وكل أمر لا يمكن ضبطه ، وأنه لو فتح باب التقدير فيه للنفوس لذهبت به بعيدا عن المقصود ، وخاصة إذا كان لا يتعلق به تشريع عملى يراد فرضه ؛ كل أمر بهذه المثابة فان القرآن الكريم يعبر عنه تعبيرا غير محدد بحيث لا يخرج به الى أحد الجانبين ، أو ينص فيه على أحد الطرفين . وبما أن مشكلة (الجبر والاختيار الانسانى) مشكلة صعب على الانسان إدراكها ، وهى دائما — من وقت أن أدرك الانسان وجوده — محل خلاف عند أرباب الديانات ، وعند الفلاسفة ، ولم يصلوا فيها الى رأى مقطوع به ؛ لما كان هذا شأن هذه المشكلة فى الماضى ، وستبقى الى أن يفنى الله الأرض ومن عليها، فان القرآن الكريم — كشأنه فى مثل هذه المشاكل التى لا يترتب عليها إصلاح النفوس — قد وقف فيها عند الحد الذى ذكرناه ، ولكن عبر عنها

مكتبتنا العربية

فقط بآيات مختلفة تدل فى مجموعها على أن للانسان اختياراً بمقدار يصحح مسئوليته ، لا اختياراً مطلقاً يجعله يخرج عن حدوده البشرية ، ولا جبراً مطلقاً يسلب عنه المسئولية . ومن يتدبر آيات القرآن التى ذكرت فى هذين الوصفين (الجبر والاختيار) لا يجدها تخرج عن هذا المعنى الذى ذهبنا اليه .

وحينئذ إذا قلنا : إن هذه الآراء دخيلة على المسلمين من الأمم الأجنبية التى دخلت تحت حوزة المسلمين ، يكون معنى هذا القول أن الانحياز إلى أحد الطرفين والتزام القول بأحدهما والجدل فيه والدفاع عنه ، قد أتى إلى المسلمين من هذه الأمم ، ولم يأتهم من مصدر عقيدتهم ، وهو القرآن ؛ لأننا عرفنا رأى القرآن فى هذا ، وأنه ما قطع فى أحد الطرفين بحكم ولا نص على رأى ، دفعاً لما قلنا ، وبعداً عن الجدل الكلامي ، والنقاش اللفظى الذى وقع فيه المتكلمون مخلصين . ولو تدبر كل منهم ما يريده الآخر لما طال هذا النقاش ، ولما وقع ذلك الاختلاف . هذا أولا

وأما ثانياً فاننا نقول :

اتفق المؤرخون الذين كتبوا عن «غيلان» على أن هشام بن عبد الملك هو الذى قتله ، إلا أنهم اختلفوا فى سبب قتل هشام له ، فيروى ابن المرتضى أن هشاما قتله لأنه رآه ينادى على بيع مافى خزائنهم ، أيام ولاه عليها عمر ابن عبد العزيز ، وأنه كان يسب بنى أمية ؛ فأقسم هشام ليقتلنه إذا ولى أمر خلافة المسلمين ، فلما ولى خلافة المسلمين نفذ ما أقسم عليه وقتله . وبناء على ما رواه ابن المرتضى يكون قتل هشام لغيلان سياسيا لا دينيا .

وأما باقى المؤرخين فيروون ما يدل على أن هشاما قتله لقوله بالقدر ، وأنه أحضر له الأوزاعى فقطعه هذا بعد أن سأله فى ثلاث مسائل لم يجب غيلان على واحدة منها ، فلما انقطع غيلان أخذه هشام وأمر به فقطعت يداه ورجلاه فمات ، وقيل : إنه صلب حيا على باب (كيسان) بدمشق .

وفى هذا يقول ابن نباتة المصرى فى كتابه (سرح العيون) : لما بلغ هشام ابن عبد الملك مقالة غيلان فى القدر ، أرسل اليه وسأله : ياغيلان ماهذه المقالة

مكتبتنا العربية

التى بلغتنى عنك فى القدر ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : هو ما بلغك ، فأحضر من أحببت يحاجّنى ، فان غلبنى ضربت رقبتى . فأحضر الأوزاعى ، فقال له الأوزاعى : ياغيلان إن شئت ألقيت سبعاً ، وإن شئت خمساً ، وإن شئت ثلاثا . فقال غيلان : ألق ثلاثا ، فقال له الأوزاعى : أقضى الله على عبد ما نهى ؟ قال غيلان : ما أدرى ما تقول ! قال الأوزاعى : فأمر الله بأمر حال دونه ؟ قال غيلان : هذه أشد من الأولى . قال الأوزاعى : فحرم الله حراما ثم أحله ؟ قال غيلان : ما أدرى ما تقول . فأمر به هشام فقطعت يداه ورجلاه فمات .

بناء على رواية ابن نباتة يكون غيلان قد قتل دفاعا عن رأيه فى القدر . ولقد اشتهر غيلان بهذا الرأى وجد له فيه أكثر من آرائه الأخرى ، حتى إنه كتب به الى عمر بن عبد العزيز فدعاه عمر الى سماع رأيه ، فاقتنع به وولاه أمر الخزائن .

وفى هذا يقول ابن المرتضى فى كتابه « المنية والأمل » : إن غيلان لما كتب إلى عمر بن عبد العزيز كتابا ، قال فيه : « أبصرت ياعمر وما كدت ، ونظرت وما كدت ، اعلم ياعمر أنك أدركت من الاسلام خلقا باليا ، ورسما عافيا ، فيا ميت بين الاموات ، فهل وجدت يا عمر حكيما يعيب مايصنع ؟ أويصنع مايعيب ؟ أويعذب على ما قضى ؟ أويقضى ما يعذب عليه ؟ أم هل وجدت رشيدا يدعو الى الهدى ، ثم يضل عنه ؟ أم هل وجدت رحيما يكلف العباد فوق الطاقة ، أو يعذبهم على الطاعة ؟ أم هل وجدت عدلا يحمل الناس على الظلم والتظالم ؟ الخ .

لما كتب غيلان إلى عمر بهذا دعاه عمر ، وقال له : أعنى على ما أنا فيه . فقال غيلان : ولنى بيع الخزائن ورد المظالم ، فولاه ، فكان يبيعها وينادى عليها ويقول : « تعالوا إلى متاع الخونة ، تعالوا إلى متاع الظلمة ، تعالوا إلى من خلف الرسول فى أمته بغير سنته وسيرته ... الى آخر ماذكره . فسمعه هشام فتوعده أن ينتقم منه إذا ولى هذا الأمر ، وكان ما أراد ونفذ فيه القتل والصلب كما ذكرنا .

أما ابن نباتة فانه يقول : قال ابن مهاجر : بلغ عمر بن عبد العزيز أن غيلان وفلانا (يظهر أن فلانا هو صالح صاحبه كما قال ابن المرتضى) نطقا فى

مكتبتنا العربية

القدر فأرسل اليهما ، وقال : ما الأمر الذى تنطقان به ؟ فقالوا : هو ما قال الله يا أمير المؤمنين . قال : وما قال الله ؟ . قال : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » ثم قال : « إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » ثم سكتا . فقال عمر : اقرآ ، حتى بلغا « إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا . وما تشاءون إلا أن يشاء الله » إلى آخر السورة . قال : كيف تريان يا ابنى الأتانة ! تأخذان الفروع وتدعان الأصول » . اه

من هاتين الروايتين يظهر لنا أن غيلان كان مشغولا بالجدل دفاعا عن رأيه فى اختيار الانسان . وعلى الرواية التى تذهب الى أن قتل غيلان كان لأجل قوله بالاختيار نعلم أن غيلان كان رجلا مخلصا لرأيه ، ويكفينا فى الحكم على تبرئته أنه ما كان يريد بهذا الرأى إلا تصحيح المسئولية وقيام الناس بالتكاليف التى كلفهم الله سبحانه بها ، ولولا هذا لاعتمد الناس على أنهم مجبورون ، وهربوا مما كلفهم الله به ، وبهذا تسقط التكاليف وتضيع التشاريع . فجازى الله هذا الرجل جزاء إخلاصه لرأيه ، وأثابه على تعذيبه فى الدنيا فيه نعيما خالدا ، وجزاء مقيما ؟

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

مواعظ بليغة

قال عمر بن ذر : عباد الله لا تغتروا بطول حلم الله ، واحذروا أسفه ، فانه قال عز وجل : « فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين » .

وقال الربيع بن خيثم : لو أن لى نفسين اذا علقت إحداهما سمت الأخرى فى فكاكها ! ولكنها نفس واحدة ، فان أنا أوثقتها من يفكها ؟

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من كانت الدنيا همه ، طال فى الآخرة غمه ، ومن خاف الوعيد ، لها عما يريد ، ومن خاف ما بين يديه ، ضاق ذرعا بما فى يده » .

متى كان التحدى بالقرآن ؟

بقلم فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدى
المدرس بكلية اللغة العربية

اختار الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم من بين العرب خاتما لرسله ، وقد اقتضى هـذا أمرين فى المعجزة التى اختص بها : أولهما أن تكون من جنس ما اشتهر العرب بالنبوغ فيه ، لأن معجزة كل رسول تكون من جنس ما نبغت فيه أمته ؛ وثانيهما أن تكون معجزة باقية على الدهر ، لتبقى بقاء الشريعة التى أريد ختم الشرائع بها ، كما أريد ختم الرسل بالرسول الذى اختير لتبليغها ؛ وقد اقتضى هذا وذلك أن يكون القرآن الكريم معجزة النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد كان بعض الرسل يبعث ومعه معجزته ، كما أرسل موسى الى فرعون ومعه معجزة العصا وغيرها من معجزاته ، لأنه طلبها من ربه قبل أن يرسله الى فرعون .

ومعلوم أن النبى صلى الله عليه وسلم حين أرسل لم ينزل عليه من القرآن إلا هذه الآيات من سورة العلق : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . فلم يكن معه من معجزة القرآن حين بعث ما يتحقق به التحدى المطلوب فى المعجزة ، لأن القرآن لم ينزل عليه جملة حين بعث ، وإنما نزل عليه مفرقا فى ثلاث وعشرين سنة ، وكان ينزل عليه مفرقا على حسب الأحوال والوقائع .

ولم يتهيب النبى صلى الله عليه وسلم ما بعث به أول أمره كما تهيبه موسى ، ولم يطلب من ربه أن يؤيده بمعجزة كما طلب موسى منه ؛ لأن قومه لم يبلغوا من القوة والطغيان ما بلغ فرعون ، وكان له منزلة بينهم قبل بعثته حتى

مكتبتنا العربية

كانوا يلقبونه الأمين ، فلم يتهيب من أجل هـذا أمرهم ، ولم ير نفسه فى حاجة الى طلب معجزة يذهب بها اليهم ؛ وهذا الى أنه أراد أن يسلك فى دعوتهم طريقا هادئا غير طريق التحدى ، وأن يتلطف فى دعوتهم ما أمكنه أن يتلطف معهم.

فأخذ فى أول أمره يدعو فى السر من آنس منه قبولا لدعوته ، فآمنت به زوجه خديجة ، ثم آمن به ابن عمه على بن أبى طالب ، وأقرب أصدقائه اليه أبو بكر الصديق ؛ ولم يزل يتلطف فى دعوته ويدعو اليها فى خفية ، حتى آمن به نحو أربعين من قومه ، وكانوا يكتمون إسلامهم عن قومهم خوفا منهم ، فاذا أراد أحدهم الصلاة ذهب الى شعاب مكة فصلى بها مستخفيا ؛ ولما بلغوا ذلك العدد اختار لهم دار واحد منهم ليجتمعوا بها سرا ، وهى دار الأرقم بن أبى الأرقم ، وكانت بأصل الصفا منفردة عن غيرها من الدور ؛ وقد مكث على هـذا ثلاثا أو أربعا من السنين ، يتلطف فى دعوته ، ولا يتحدى أحدا بها ، فلم يكن فى حاجة الى معجزة يتحدى بها من يعارضه .

ثم أمر بعد هذا أن يجهر بالتبليغ ، فتلطف أيضا فى الجهر به ، وابتدأ فجمع عشيرته الأقربين من بنى عبد المطلب ، فعرض عليهم دعوته ، وطلب منهم أن يؤمنوا به ، فتكلم القوم كلاما لينا ، ولم يشتد فى جوابه إلا عمه أبو لهب ، فانه قال لهم : خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب ، فان أسلمتموه ذللتم ، وإن منعتموه قتلتم . فقال أخوه أبو طالب : والله لتمنعنه مابقينا !

ولما جهر بالدعوة لم يطالبه قومه بآية عليها فى أول الأمر ، بل كانوا يسخرون منه ويستهزئون به فى مجالسهم ، وكان إذا مر عليهم يقولون : هـذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء ! وكانوا لايهتمون فى أمره بأكثر من ذلك ، استخفافا بدعوته ، واستهانة بأمرها ، لأنهم كانوا يظنونها سحابة صيف ، ولا يظنون أنه سيكون لها شأن بينهم .

فلما ثابر عليها وأخذ فى عيب آلهتهم وتسفيه عقولهم ، ثارت حمية الجاهلية فى رءوسهم ، وأخذتهم الغيرة على آلهتهم ؛ ولكنهم مضوا على استخفافهم بأمره ، فلم يتوجهوا إليه أن يكف عنهم ، ولم يطالبوه بمعجزة يؤيد بها دعوته ،

مكتبتنا العربية

بل ذهبوا الي عمه أبي طالب فشكوه اليه ، فردهم رداً جميلا ، فانصرفوا عنه ينتظرون ما يفعل معه .

ولكنه مضى فى دعوته لا يصدّه شيء عما يريد ، فتزايد الأمر عليهم ، وأضمروا له العداوة والحقد ، ولكنهم مضوا فى تغاضيهم عنه ، وذهبوا إلى عمه أبي طالب يشكونه مرة أخرى ، وقالوا له : إما أن تكفّه أو تنازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين . فدعاه أبو طالب وقال له : يا بن أخى ، إن القوم جاءونى فقالوا لى كذا ، فأبق على نفسك ، ولا تحمّلنى من الأمر مالا أطيق . فظن أن عمه خاذله ، فقال له : والله ياعمّ ، لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما فعلت ، حتى يُظهره الله أو أهلك دونه ! ثم بكى وولّى ، فقال أبو طالب : أقبِلْ يا بن أخى ، فأقبل عليه ، فقال له : اذهب فقل ما أحببت ، والله لا أسلمك !

فلما رأوا أبا طالب لا يجيبهم إلى منعه عن عيب آلهتهم ، أخذوا يؤذونه ويؤذون أصحابه ، فلقوا مِن أذاهم شيئاً كثيراً ، ولكنهم صبروا على أذاهم ، وثبتوا على إيمانهم ، ولم يكفّ النبي صلى الله عليه وسلم عن عيب آلهتهم ، فاجتمعوا للشورى فى أمره ، فقال لهم عُتْبَة بن ربيعة العَبْشَمى : يامعشر قريش ، ألا أقوم لمحمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعلّه يقبل بعضها فنعطيه إياها ، ويكف عنا ؟ فأجابوه إلى ذلك ، فقام إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فى المسجد ، فقال له : يا بن أخى ، إنك منا حيث قد علمت ، من خيارنا حسباً ونسباً ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم ، وسفّهت أحلامهم ، وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفّرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرضْ عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضاً .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قلْ يا أبا الوليد أسمعْ .

فقال : يا بن أخى ! إن كنت إنما تريد بما جئت من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفا سوّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ؛ وإن كنت تريد مُلكا مَلّكناك علينا ؛

مكتبتنا العربية

وإن كان هذا الذى يأتيك رئىٌ من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى .

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : لقد فرغت يا أبا الوليد ؟ فقال : نعم . فقال : فاسمع منى . فقرأ عليه أول سورة فصلت « بسم الله الرحمن الرحيم ، حم ، تنزيلٌ من الرحمن الرحيم ، كتابٌ فصلتْ آياتُهُ قرآناً عربيا لقومٍ يعلمونَ » الآيات إلى قوله : «فإنْ أعرضوا فقلْ أنذرتُكم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمود إذْ جاءتهم الرسلُ مِنْ بينِ أيديهمْ ومِنْ خلفهم ألاّ تعبدوا إلا اللهَ قالوا لوْ شاء ربُّنا لأنزلَ ملائكةً فإنا بما أرسلتمْ بهِ كافرونَ » .

فأمسك عتبة بفيه ، وناشده الرحم أن يكفَّ عن ذلك ؛ فلما رجع عتبة سألوه فقال لهم : والله لقد سمعت قولا ما سمعت مثله قط ! والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر ! يامعشر قريش أطيعونى فاجعلوها لى ، خلّوا بين الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لكلامه الذى سمعت نبأ ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فعزّه عزّكم . فقالوا له : لقد سحرك محمد ! فقال لهم : هذا رأيى .

ثم عرضوا على النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أن يشاركهم فى عبادتهم ويشاركونه فى عبادته ، فأنزل الله تعالى فى ذلك « قلْ يا أيها الكافرونَ ، لا أعبدُ ما تعبدونَ ، ولا أنتمْ عابدونَ ما أعبدُ » السورة .

ثم طلبوا منه بعد ذلك أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذمّ الأوثان والوعيد الشديد ، فيأتى بقرآن غيره أو يبدله ، فأنزل الله جوابا لهم فى سورة يونس « قلْ ما يكونُ لى أنْ أبدّلهُ مِنْ تلقاءِ نفسى إنْ أتّبعُ إلا ما يُوحى إلىّ » الآية ـ ١٥ ـ من سورة يونس .

فلما رأوا أن هذه المطالب التى يعرضونها عليه لاتقبل منهم ، صاروا إلى تعجيزه بطلب الآيات ، وكانوا يطلبونها على سبيل التعنت ، ولم يطلبوها

مكتبتنا العربية

ليؤمنوا بها ، وكان هذا بعد أن مضى زمن طويل على بعثته اليهم ؛ فكان من أول ما ورد من هذا فى آخر سورة الأعراف « وإذا لمْ تأتِهمْ بآيةٍ قالوا لولا اجتبيتها ؟ قلْ إنما أتّبع ما يوحى إلىّ من ربّى ، هذا بصائرُ من ربكم وهدًى ورحمةٌ لقومٍ يؤمنونَ » الآية ـ ٢٠٣ ـ من سورة الأعراف ، وهي السورة التاسعة والثلاثون من السور التى نزلت بمكة .

ثم ورد بعد ذلك فى سورة الفرقان « وقالوا ما لهذا الرسولِ يأكلُ الطعامَ ويمشى فى الأسواقِ ؟ لولا أنزلَ إليهِ ملكٌ فيكونَ معهُ نذيراً . أو يلقى إليهِ كنزٌ أو تكونُ له جنةٌ يأكلُ منها ؟ وقال الظالمونَ إنْ تتّبعون إلاّ رجلاً مسحوراً » الآيتين ـ ٧ ، ٨ ـ من سورة الفرقان ، وهى السورة الثانية والأربعون من السور التى نزلت بمكة .

ثم ورد بعد ذلك فى سورة طه « وقالوا لولا يأتينا بآيةٍ منْ ربّه ؟ أوَ لمْ تأتِهمْ بيّنةُ ما فى الصُّحفِ الأولى » الآية ـ ١٣٣ ـ من سورة طه ، وهى السورة الخامسة والأربعون من السور التى نزلت بمكة .

ثم ورد بعد ذلك فى سورة القصص ما يشبه أن يكون تحدياً بالقرآن : « فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ؟ أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ؛ قالوا سحران تظاهرا ، وقالوا إنا بكل كافرون ؟ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ، فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين » الآيات ـ ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ـ من سورة القصص ، وهى التاسعة والأربعون من السور التى نزلت بمكة .

ثم ورد بعد ذلك فى سورة الإسراء تحدٍّ صريح لهم بمعجزة القرآن « قل لئن اجتمعتِ الانسُ والجنُّ على أنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتون بمثلهِ ولوْ كانَ بعضهمْ لبعضٍ ظهيراً » الآية — ٨٨ — من سورة الاسراء ، وهي السورة الخمسون من السور التى نزلت بمكة ، وكان نزولها بعد حادثة الاسراء ، وكانت هذه الحادثة قبل الهجرة إلى المدينة بسنة ، أى فى السنة الثانية

مكتبتنا العربية

عشرة من البعثة ، وهذه هى السنة التى اتخذ فيها التحدى بمعجزة القرآن شكله الصريح ، وكان هذا بعد أن نزل منه خمسون سورة ؛ وهذا قدر صالح للتحدى به فى أول الأمر ، وإن كان التحدّى قد تدرّج بعد هذا إلى أن صار بسورة واحدة من القرآن .

ولو كان هذا الادعاء صحيحا لأمكنهم أن يأتوا به ، ولكان أسهل وسيلة للفصل فى تلك الخصومة التى طال أمرها بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم . ولقد بلغ من أمرهم فى محاولة التخلص منها أن عرضوا عليه أن يجعلوه ملكا عليهم ، وأن أغروه بمال كثير يجمعونه له ؛ وهذا عرض منه لا يكلفهم أن يجعلوه ملكا ، ولا أن يجمعوا له مالا كثيرا ، فلو كان فى قدرتهم لما أحجموا عنه ، ولوصلوا به إلى ما يريدون من إبطال أمره .

وهنا أمر لا بدّ من لفت النظر اليه ؛ لأنه لم يلتفت أحد اليه الى عصرنا مع أنه يتوقف عليه معرفة التحدّى بمثل القرآن على حقيقته ، ويعرف به السر فى أنهم لم يمكنهم الاتيان به ؛ وذلك أن أعظم ما يمتاز به القرآن أمران : أولهما وأقواهما : أنه كتاب هداية ، وثانيهما أنه فى أعلى أسلوب عربى ، ولا بدّ أن يدخل الأمران فى التحدّى بمثله ، وإن كان المشهور بين الناس أن التحدى به كان فى الأمر الثانى فقط ، لأن التحدى به فى الهداية قد صُرح به فى بعض صور التحدى ، وهو ما سبق من قوله تعالى فى سورة القصص « قُلْ فأْتوا بكتابٍ مِنْ عندِ اللهِ هُوَ أهدى منْهما أتّبعْهُ » .

واذا كانت الهداية داخلة فى التحدّى بمثل القرآن ، وكانت هداية القرآن لها تأثير فى إعجازه كما كان لقوة أسلوبه ، كان أولئك الناس فى ضلالهم أعجز الناس عن ذلك التحدى ، وإن بلغ أسلوبهم فى القوة ما بلغ ؛ لأنهم إذا تحدّوا القرآن لم يتحدوه فى أسلوبه فقط ، بل تحدوه فى هدايته أيضا ، لأن أمرها عندهم أهم من أمر أسلوبه ؛ وهنا يكون عجزهم وضعفهم ، لأنهم مبطلون فى العقائد والشرائع ، فينقصهم ركن الهداية فى التحدّى ، ومتى نقصهم ذلك الركن لم ينفعهم ما امتازوا به من فصاحة وبيان ؛ لأن الأمر فى التحدى لا يقتصر على الفصاحة والبلاغة ، بل هناك ما هو أهم منهما فيه ، وهو الحق

مكتبتنا العربية

وماله من روعة تعلو على روعة البيان ، والباطل وما يقعد به من ضعف لاينهض به قوة الأسلوب .

فلا غرو بعد هذا أن يقف أولئك الناس حيارى أمام ذلك التحدى ، ولا غرو أن يداروا ضعفهم وعجزهم بالطعن فى القرآن ؛ فيقولوا فيه مرة إنه سحر ، ومرة إنه شعر ، ومرة إنه أساطير الأولين ، الى غير هذا مما طعنوا به فيه ،

ثم تحُدُّوا بعد هذا بسورة مثل القرآن فى سورة يونس « أمْ يقولونَ افتراهُ ، قُلْ فأْتُوا بسورةٍ مثلهِ وادْعُوا منْ استطعتمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كنتمْ صادقينَ » الآية — ٣٨ — من سورة يونس ؛ وهى السورة الواحدة والخمسون من السور التى نزلت بمكة .

ثم تحُدُّوا بعد هذا بعشر سور من القرآن فى سورة هود « أمْ يقولونَ افتراهُ ، قُلْ فأْتُوا بعشرِ سورٍ مثلهِ مفتريات وادْعُوا مَنْ استطعتمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كنتمْ صادقينَ » — الآية ١٣ من سورة هود ، وهي السورة الثانية والخمسون من السور التى نزلت بمكة .

ثم تحُدُّوا به بعد هذا فى سورة الطور « أمْ يقولونَ تقوَّلهُ ، بَلْ لايؤمنونَ ، فليأْتُوا بحديثٍ مثلهِ إنْ كانوا صادقينَ » الآيتين — ٣٣ ، ٣٤ — من سورة الطور ، وهي السورة السادسة والسبعون من السور التى نزلت بمكة .

ثم تحُدُّوا بعد هذا بسورة واحدة منه فى سورة البقرة « وإنْ كنتمْ فى ريبٍ ممَّا نزَّلنا على عبدِنا فأْتوا بسورةٍ مِنْ مثلهِ وادْعُوا شهداءكمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كنتمْ صادقينَ . فإنْ لمْ تفْعلوا ولنْ تفعلوا فاتقُوا النارَ التى وَقُودها الناسُ والحجارةُ أُعِدَّتْ للكافرينَ » الآيتين — ٢٣ ، ٢٤ — من سورة البقرة ، وهي أول سورة نزلت بالمدينة .

وكان هذا آخر ما تُحُدوا به فى القرآن ؛ وقد اختتم بمثل ما افتتح به من إعلان عجزهم صريحا أن يأتوا بما تحدوا به ، ولكنهم لم يكفّوا بعد هذا التحدى عن الطعن فى القرآن ؛ ومما كانوا يقولونه فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم يتلقاه من بعض الأعاجم من أهل الكتاب « ولقدْ نعلمُ أنهمْ يقولونَ

مكتبتنا العربية

إنما يعلمه بشر ، لسانُ الذى يلحدونَ اليهِ أعجمىٌّ وهذا لسانٌ عربىٌّ مبينٌ » الآية — ١٠٣ — من سورة النحل . وقد بلغ من تبجحهم فى الطعن أنهم كانوا يدّعون القدرة على أن يأتوا بمثله ، كما قال تعالى فى الآية — ٣١ — من سورة الأنفال « وإذا تتلى عليهمْ آياتنا قالوا قدْ سمعنا ، لوْ نشاءُ لقلنا مثلَ هذا إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولينَ » .

وهو منهم تهرب عن ذلك التحدى ، بل إن طعنهم فيه بذلك مما تنهض به الحجة عليهم ، لأنه لو كان سحراً أو شعراً أو من أساطير الأولين ، لكان من جنس كلامهم ، ولم يكن من عند الله تعالى ، فيكون التحدى به أهون عليهم ، ويكون الإتيان بمثله مما يدخل فى مقدورهم .

وقد داروا ضعفهم أيضا باصرارهم على ما كانوا يطلبونه من الآيات قبل التحدى بالقرآن ، كما حكى عنهم فى سورة الأنعام : «وقالوا لولا أنزل عليه ملَك ولو أنزلنا ملَكا لقُضى الأمر ثم لا يُنظَرون » الآية : ٨ من سورة الأنعام .

فهذا تهرب أيضا منهم عن التحدى بمعجزة القرآن ، لأنه قد جعل القرآن معجزته التى آثره الله بها ، فكان من الواجب عليهم أن يقفوا عند تحديهم بهذه المعجزة ، وأن يحاولوا الاجابة عن هذا التحدى ، أو يقروا بعجزهم . وإذا كانت هذه الآية فى نظرهم أقل من آيات الرسل السابقين ، فان هذا أيضا مما تنهض به الحجة عليهم ، لأنه مما يهوّن أمر تحديهم بها . فيكون الواجب عليهم قبول هذا التحدى ، لا التهرب منه بطلب آيات أخرى .

على أن الله تعالى قد أجابهم عن طلب هذه الآيات بقوله مثلا فى الآية السابقة من سورة الأنعام : « ولو أنزلنا ملَكا لقضى الأمر ثم لاينظرون » . فهو لايريد أن يأخذهم بالعذاب إذا لم يؤمنوا كما أخذ الأمم السابقة ، وإنما يريد أن يمهلهم إذا لم يؤمنوا ، رحمة بهم ، واستبقاء لهم ، لأنه يريد أن يختم بهم رسالته ، وأن يجعلهم آخر الأمم التى تحمل دعوته ، وهذا إنما تناسبه معجزة القرآن ، لأنه يقترن التحدى فيها بمحاولة الاقناع بالدليل ، ولا يقتصر الأمر فيها على التحدى الذى لايكون فيه إعذار وإمهال ؟

مكتبتنا العربية

في بلاد العروبة والاسلام :

نهضتان زميلتان

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني
المدرس بكلية الشريعة

كان العرب والمسلمون في أوائل هذا القرن في حالة يرثى لها ، قد استولى عليهم ضعف سياسي ، وضعف فكري ، شملا جميع بلادهم وأممهم ، ومكنا للمستعمرين الغاصبين من بلوغ أهدافهم ، وتحقيق مآربهم على أحسن ما يريدون .

فمن مظاهر ذلك الضعف السياسي أن الأمة الاسلامية تفرقت الى دويلات صغيرة محكومة بغيرها ، ولا شأن لها في نفسها ، فضلا عن أن يكون لها شأن في أحوال العالم ، وبدت هذه الدويلات متقاطعة متنازعة فيما بينها ، لأن المستعمرين قد نجحوا في إيغار الصدور ، وتقطيع الأواصر ، وأن تحتفظ كل منها بأسباب الضغائن والأحقاد القديمة ، وأن تضيف الى هذه الأحقاد ما كان يجدّ يوما بعد يوم ، وتزداد به النار اشتعالا .

ومن مظاهر ذلك الضعف السياسي أن الأمم الشرقية كلها ، ولا سيما العرب والمسلمون ، قد رزحوا تحت سيطرة اقتصادية عاتية ، لا تعرف الرحمة ، وليس لها ضمير ولا قلب ، أشاعت فيهم الفقر والمتربة ، والذل والمسكنة ، واغتصبت خيرات بلادهم ، وكنوزهم الطبيعية ، فتمتع بها المستعمرون على أعين من أهلها وهم يشهدون ؛ ومن العجب أن هؤلاء المستعمرين قلة لا تذكر بجانب هذه الملايين المستضعفة المسخرة ، وأن المساحة الأرضية لأية أمة من الأمم المغلوبة تربو أضعافا على مساحة الأمة الغالبة ، فلم يكن الفقر في الرجال والعدد ، ولا في أسباب الثروة الاقتصادية . وإنما كان فقرا في النفوس أدّى اليه التقاطع والتدابر وضعف الشوكة ، والاستسلام الى عوامل الضعف والتفكك .

ولم يكن الضعف الفكري والعلمي بأقل من الضعف السياسي والاقتصادي ، فقد أقفرت بلاد العروبة والاسلام من الأفذاذ المخترعين ، والعلماء الباحثين

مكتبتنا العربية

المثابرين ، ورجعت القهقرى حتى فيما كانت تحسنه من العلوم والمعارف ، فغدا فيها التقليد والجمود والاشتغال بما لا يجدى من المناقشات والمجادلات التى جعلت الأمة الواحدة عناصر متفرقة ، وطوائف مختلفة يعادى بعضها بعضا ، ويتربص بعضها ببعض ، وكثرت هذه الطوائف والفرق ، وتقاذفوا فيما بينهم تهم التكفير والالحاد والزندقة وما اليها من المطاعن التى كانت تنزل بردا وسلاماً على قلوب المستعمرين ، وتؤيدهم فى مهمتهم التى لا مناص لهم من الاضطلاع بها ، لتفريق كلمة الشعوب ، وتوطيد سلطانهم فيها الى الأبد .

نعم إن هذا القرن لم يكن هو المسئول الأول عن هذا الانحلال ، وإنما ورثه عما قبله من القرون السابقة عليه ؛ تلك القرون التى مهدت بخلافاتها وجمودها وانسلاخها عن سنة السلف الصالح من الأولين ، الى هذا المصير ؛ ولكن العرب والمسلمين فى هذا القرن قد بذوا من قبلهم فى ذلك ، ولم يسمحوا بأى تطور أو إصلاح من شأنه أن يخفف عنهم أعباءه الثقال ، مع أن فرصا كثيرة واتتهم ، ولم يعتبروا بمن حولهم من الأمم التى أحسنت التخلص من عللها وأمراضها ، والسير فى طريق الرقى والتقدم .

وكانت تبدو فى الحين بعد الحين لمحات من النور ، ونبضات من الإحساس حين يقوم بعض المصلحين ، أو دعاة النهوض بالكلام فى هذه النواحى ، والتحذير من الاسترسال فيها ، ولكن هذه الأصوات كانت تذهب هباء ، وتتفرق بددا ، ولا تجد آذانا سميعة ، ولا قلوبا واعية ، ولا عملا يؤازرها من الحكومات والشعوب ؛ ذلك بأن النوم كان عميقا ، والمرض كان قد تأصل واستقرت جذوره وتشعبت .

وفى وصف هذه الحالة يقول حكيم الشرق ، المصلح العظيم ، جمال الدين الأفغانى :

« إن الشرق بعد ما كان له من الجاه الرفيع ، والمقام المنيع ، والسلطنة العظيمة ، وبسطة الملك ، وعظيم الشوكة ، وكثرة الصنائع والبدائع ، ووفور الأمتعة والبضائع ، ورواج سوق التجارة ، وذيوع العلوم ، والمعارف ، وشيوع الآداب والفنون — ما هبط عن جليل مرتبته ، وما سقط من رفيع

مكتبتنا العربية

منزلته ، ولا استولى الفقر والفاقة على ساكنيه ، ولا غلب الذل والاستكانة على عامريه ، ولا تسلطت عليه الأجانب ، ولا استعبدت أهله الأباعد ، إلا لإعراض الشرقيين عن الاستنارة بنور عقولهم ، وتطرق الفساد فى أخلاقهم . فانك تراهم لايتدبرون أمرا ، ولا يتقون فى أفعالهم شرا ، ولا يكدون لجلب النافع ، ولا يجتنبون الضار ؛ طرأ على عقولهم السبات ، ووقفت أفكارهم عن الجولان فى إصلاح شئونهم ، وعميت بصائرهم عن إدراك النوازل التى أحاطت بهم ؛ لايحسون المصائب قبل أن تمس أجسادهم ، وينسونها كالبهيمة بعد زوال آلامها ، واندمال جراحها ؛ رعوا الذل ، وألفوا الصغار ، وأنسوا الهوان ، وانقادوا للعبودية ، وتظاهروا مع الذل المتمكن من قلوبهم بالكبر والعظمة ، وفشا بينهم الشقاق والنفاق ... الخ » .

ومن جهة أخرى كان المنادون بالاصلاح ، والدعاة الى النهوض ، يجدون مقاومة عنيفة ، لامن المستعمرين الذين يطيب لهم بقاء هذا الضعف والركود فحسب ، ولكن من إخوانهم وأهليهم أيضا ؛ فقد كانوا يتهمونهم فى أغراضهم ويتظننون بهم ، وينعون عليهم دعاءهم الاصلاحى ، زاعمين أنهم من دعاة هذا الفريق أو ذاك ، وأنهم إنما يريدون نصرة أفكار هذه الطائفة أو تلك ، فلم تستطع الأمة أن تسمع دعوتهم إلا فى غمار من الضجيج ؛ ضجيج الافتراء عليهم ، والتشويه لأغراضهم .

وهكذا كان المتنبهون إلى الخطر قلة ، وكان الذين يجاهرون به وينادون بالقضاء عليه قلة فى هذه القلة ، ثم هم فى ندائهم على حذر واحتياط وتحفظ من شأنها أن تجعل الدعاء خافتا ضعيفا ؛ ولن تنجح دعوة إصلاحية إلا إذا كان الصوت الذى ينادى بها جهيرا صريحا لا يعرف الدوران حول المقاصد ، وإنما يأتى إليها وإلى كل ما يريد فى سبيلها مجابها ومواجها .

* * *

ظلت حال البلاد العربية والاسلامية على هذا النحو من التفرق والانحلال والضعف إلى عهد قريب ، وذاقت الأمة من ذلك الهوان والفقر والذل والجهل ، ثم أذن الله لهذه الغمم أن تنكشف رويدا رويدا ، وأن تنزاح عن الصدور

مكتبتنا العربية

أثقالها شيئا بعد شيء ؛ فأدرك العرب والمسلمون جميعا أنهم مسوقون الى الهاوية ، وأن عليهم أن يقفوا ولا يندفعوا فى هذه الطريق ؛ وأن يأخذوا فى أسباب التخلص من هذا المصير الفاجع الذى ينتظرهم ، وحينئذ بدت فى آفاقهم دعوتان متزاملتان ، وبدت تباشير الإنصات إلى هاتين الدعوتين ، وتجاوبت بهما أرجاء العالم العربى والاسلامي .

(١) إحداهما : الدعوة الى التفاهم بين الشعوب العربية ، ثقة بأنهم إذا اتفقوا وتعاونوا ، وتطهرت قلوبهم من أحقاد الماضى التى ورثوها ، أو أورثهم إياها المستعمرون ، دون أن يكون لهم يد فيها ، فقد قضوا على السبب الأول والأكبر من أسباب ضعفهم ، وساروا الخطوة الأولى فى طريق استعادتهم لمجدهم وعزهم .

بهذه الدعوة التى استجابت لها الأمة العربية فى شتى البلاد ، والتى كان من آثارها إنشاء « الجامعة العربية » صحا الوعى القومي ، وأصبح للعرب سياسة مرسومة مفهومة متبادلة بين سائر شعوبهم ، تتعاون كلها على تحقيقها لصالح أبنائها ، بل لصالح العالم كله شرقيه وغربيه ؛ لأن هذا الجزء المتقارب من أرض الله ، إذا نجح واستقامت أموره على نحو يليق بعالم متحضر ، كان عونا لهذا العالم على تيسير السعادة والهناءة لجميع الشعوب ، وإقرار الأمن والطمأنينة والسلام فى جميع بقاع الأرض ؛ فالسلم حالة مشتركة ، والعلم حالة مشتركة ، والرفاهية حالة مشتركة ، وهكذا كل شأن من شئون العالم ، ولا سيما فى عصرنا الحاضر الذى قضى فيه على الفروق ، وطويت بين أرجائه الأبعاد والمسافات ، يجب أن يفهم على أنه وحدات متماسكة تكون آلة واحدة ، وتهدف إلى غرض واحد ، هو إنشاء عالم سعيد هانىء متعاون من بنى الانسان دون تفريق بين الأجناس والأوطان والشعوب :

(٢) والدعوة الأخرى : هى دعوة دينية فكرية ثقافية ، تعالج الناحية الأخرى التى مُنى بها المسلمون فحقت عليهم كلمة الذل والهوان ؛ هى دعوة جميع الفرق الإسلامية ، والطوائف المختلفة فى سائر الشعوب التى تؤمن بالقرآن

مكتبتنا العربية

الى نبذ الخلافات التى لا طائل تحتها ، وليس لها صلة بالعقائد الإسلامية الصحيحة ، ولا دخل لها فيما يكون به المؤمن مؤمنا ؛ ففى الأمة الإسلامية طوائف وفرق كلها تدين بالإسلام ، وتأخذ بأصوله المسلمة ، وقواعده المستمدة من كتابه وسنة رسوله واجتهاد المجتهدين ، وإنما يفرق بينهم نظريات ومسائل لا وزن لها عند الذين يؤثرون الحقائق الواقعية ، والعمليات المثمرة ، ولم يكلف الله أحدا بالخوض فيها ، ولا الإيمان بشىء معين منها ، ولا هى تساوى فى قيمتها الفكرية ما ينجم عن الخلاف فيها والتعصب لها ، من الشر والقطيعة والافساد بين المسلمين ؛ وإذا كان الأمر كذلك فليغلقوا باب الجدل والنقاش فى هذه المسائل ، وليستغنوا عنها ، فإنهم لا يخسرون بذلك شيئا ؛ وسيكسبون الوحدة الدينية ، والأخوة الاسلامية ، التى كانت لهم عزا وقوة ، ويستريحون من هذه الحرب النظرية التى فرقت بينهم ، وجعلتهم يتراشقون بالتهم جزافا ، وهم أهل قبلة واحدة ، وكتاب واحد ، ورسول واحد .

إن القاعدة الذهبية التى يجب أن تسود المسلمين فى جميع شعوبهم وطوائفهم ، هى هذه القاعدة التى نادى بها من قبل حكيم الاسلام جمال الدين ، وعبر عنها المصلح الكبير السيد محمد رشيد رضا أحسن تعبير حين قال : « نتعاون فيما نتفق عليه ، ويعذر بعضنا بعضا فيما نختلف فيه ، وندعو كل طائفة لمقاومة البدع الفاشية فيهم لتكون دعوتهم أقرب إلى القبول » .

هذه هى الدعوة الفكرية الدينية ، التى زاملت الدعوة السياسية العربية ؛ وقد أذن الله بهما معا فى هذا العهد الأخير ؛ ولم تقتصر هذه الدعوة الفكرية على ما كان يقتصر عليه الداعون من قبل ، ولكنها اتخذت مظهرا إيجابيا فعالا ، فتألفت لها جماعة منظمة اسمها « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » ، تضم مؤسسين من أكبر الرجال فى مصر وغيرها ، ويبيح قانونها أن ينضم إليها من أراد أن يجاهد فى سبيل وحدة المسلمين من جميع الشعوب ، واتخذت لها دارا فى القاهرة ، ووضعت لها قانونا يرسم أهدافها ، ويحدد أغراضها ، التى لا صلة لها بالسياسة ، وينظم أعمالها .

مكتبتنا العربية

وقد تقدمت هـذه الجماعة إلى العالم الاسلامى ببيان مستفيض ، فرحبت بتأليفها جميع الطوائف الاسلامية فى مصر والعراق وإيران والشام والحجاز واليمن وغيرها ، وتوالت عليها رسائل التأييد ، مما يبشر بعهد زاهر ونجاح لهذه الدعوة المباركة ، إن شاء الله .

وقد مد الأزهر الشريف يد المعاونة لهذه الجماعة ، فاشترك فى تأسيسها بجماعة من علمائه ، فى مقدمتهم أربعة من أعضاء جماعة كبار العلماء ، وبينهم رئيس لجنة الفتوى ، وعميدان من عمداء الكليات ، ورئيس مسئول فى إدارة الأزهر هو فضيلة الشيخ المدير ، وغيرهم ، وهم جميعا يمثلون المذاهب المختلفة ، ووجوه النشاط الفكرى المتعددة ، كما أمدتها جامعة فؤاد الأول باثنين من علمائها الفضلاء ، واشترك فيها وزيران جليلان ، أسندت إلى أحدهما رياستها ، وهو حضرة صاحب السعادة العربى الكبير والاجتماعى الناشط محمد على علوبة باشا ، كما اشترك فيها أحد المستشارين النابغين بمحكمة النقض والإبرام ، وسماحة مفتى فلسطين الأكبر ، ورئيس جمعية الاخوان المسلمين « مرشدها العام » ومندوبون من أفاضل علماء الشيعة الامامية والزيدية وغيرهم ، وتولى أمانتها رجل من فضلاء المشتغلين بالشئون الاسلامية ، ذو خبرة عظيمة بها .

وبذلك استكملت هـذه الهيئة الناشئة كل العناصر العاملة المفكرة ، وبدأت عملها فى هـدوء وسكينة ؛ وإنها لواصلة إن شاء الله بفضل معاونة المسلمين إلى تحقيق غرضها الشريف .

وقد جاء فى البيان الذى تقدمت به هذه الجماعة إلى العالم الاسلامى ، بعد استعراض حالة المسلمين ، وبيان واجب المفكرين ما نصه :

« نقدم جماعتنا هـذه الى العالم الاسلامى الذى رزح تحت أثقال التفرق أجيالا بعد أجيال ، وقرونا تطاول عليها الأمد ، فنبشر المسلمين بعهد جديد نرجو أن يكون بدءاً لانقشاع سحب الخلاف من جوهم ، ونرجو أن تكون الخطوات فيه الى هذا الغرض الشريف سريعة موفقة ، إن شاء الله

« وقد ألفت هذه الجماعة فى مصر حاضرة الاسلام ، وملتقى أفكار المسلمين ، ومشرق شمس الأزهر الشريف ، تلك الجامعة العلمية الاسلامية التى

مكتبتنا العربية

تهوى إليها أفئدة من الناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، على أن تكون لها فيما بعد فروع فى شتى البلاد ، ومختلف البقاع ، تسير على نهجها ، وتخدم فكرتها ، وتعاون على جمع كلمة المسلمين بكل ما تستطيع من ألوان التعاون .

« وإننا حين نعلن فى العالم الاسلامى نبأ تأليف هذه الجماعة ذات الغرض الاسمى ، لنرجو من كل مسلم أن يتقبلها بقبول حسن ، وأن يضم جهده الى جهود أعضائها ، وأن يبث فكرتها ، ويعمل على تحقيق غايتها . نرجو ذلك من كل أمة وطائفة وجماعة وفرد ، ونرجو من كل من يؤمن بالقرآن ، ويعتقد برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » .

الاجوبة المسكتة

قال أبو العيناء قلت لأحمد بن أبى دؤاد : إن قوما تضافروا على . فقال : « يد الله فوق أيديهم » . قلت إنهم عدد وأنا واحد . فقال : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة » . قلت إن للقوم مكرا . فقال « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » .

وهجا نهار بن توسعة الشاعر ، مسلم بن قتيبة والى خراسان بعد يزيد بن المهلب . فطلبه مسلم فهرب منه ، ثم دخل عليه بكتاب أمه .

فقال له مسلم : ويحك بأى وجه تلقانى ! فأجابه الشاعر بالوجه الذى ألقى به ربى ، وذنوبى اليه أكثر من ذنوبى اليك . فقربه الأمير ووصله وأحسن اليه .

وأقبل المنصور يوما راكبا ، والفرج بن فضالة جالس عند باب الذهب ، فقام الناس إليه ولم يقم الفرج بن فضالة . فدعا به المنصور وقال له : ما منعك أن تقوم لى مع الناس ؟ فقال له : خفت أن يسألك الله عنه لم رضيت به وقد كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه ؟ فسكن غضب المنصور وقربه وقضى حوائجه .

مكتبتنا العربية

علوم القرآن

علم المنطق والمفهوم

مفهوم المخالفة

لفضيلة الأستاذ الشيخ حسن حسين
المدرس بمعهد طنطا الثانوى

بينّا فى المقالين السابقين المنطوق بقسميه ومفهوم الموافقة ، وبقى من البحث مفهوم المخالفة ؛ ونريد أن نبين معناه وأنواعه ، والحجاج والجدل الدائر حول : هل هو حجة فى التشريع وتقرير الأحكام ، أولا ؟ وهو فى الواقع موضوع هام جدا يتصل بما يقتضيه بعض الأدلة من البحث عن أسرار اللغة ومرامى أساليبها العالية من جهة ، ومسلك المجتهدين فى أخذ الأحكام من الأدلة الأصولية من جهة أخرى .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

حده وأنواعه :

قال الأصوليون : مفهوم المخالفة : ما يكون مدلول اللفظ فى محل السكوت مخالفا لمدلوله فى محل النطق ، على معنى أن يكون الحكم الثابت فى محل السكوت مناقضا للحكم الثابت فى محل النطق ؛ ويسمى عندهم دليل الخطاب ؛ مثاله قوله تعالى : « ولا تقربوهن حتى يطهرن » فمنطوق الآية تحريم قربان النساء مدة الحيض ، ومفهومها المخالف جواز القربان عند انقضاء مدة الحيض ، والجواز والتحريم نقيضان ؛ وقوله تعالى « حتى يطهرن » بالتخفيف قراءة حفص معناه حتى ينقطع الدم ، وبالتشديد قراءة غير حفص معناه حتى يغتسلن ، وهو خلاف بين الأئمة ، فبعضهم أجاز الجماع عند انقطاع الدم وإن لم تغتسل المرأة تمشيا مع قراءة حفص ، وبعضهم منعه حتى تغتسل تمشيا مع القراءة الثانية ، وهو خلاف له معناه فى موضوعنا ،

مكتبتنا العربية

إذ هو يحدد منطوق الآية ومفهومها ، فعلى قراءة التشديد تكون المدة الواقعة بين انقطاع الدم والغسل داخلة فى منطوق الآية الموجب للتحريم ، إذ القربان محرم حتى تغتسل ، فإذا تأخرت عن الاغتسال مدة طويلة أو قصيرة كان الوقاع محرما عملا بالمنطوق .

وعلى قراءة حفص لا يكون محرما بعد انقطاع الدم وقبل الغسل ، فيكون داخلا فى مفهوم المخالفة . ومن هنا تعلم أن أساس المفهوم مطلقا ، سواء أكان مفهوم موافقة أم مخالفة ، هو تخصيص محل النطق بالذكر ، وأن مناط الفرق بينهما هو أن فائدة التخصيص بالذكر فى مفهوم الموافقة إنما هو تأكيد مثل الحكم المنطوق به فى محل السكوت كما تقدم فى قوله تعالى : « فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما » وفائدته فى مفهوم المخالفة إنما هو نفى مثل الحكم المنطوق به فى محل السكوت كما فى الآية السابقة : « حتى يطهرن » . ولا بد فى ذلك من نظر عقلى سليم ، ومعرفة أساليب القرآن فى آيات الأحكام ومسلك المجتهدين فى استنباطها ، لأن مجرد تخصيص محل النطق بالذكر لا يفهم منه أن التخصيص هل هو لتأكيد حكم المنطوق فى المفهوم أم هو لنفيه عنه ؛ وسبيل ذلك هو النظر فى حكمة مشروعية الحكم المنطوق به ؛ فإن عرفت ، وعرف أنها متحققة فى المسكوت عنه ، وأنها أولى باقتضائها الحكم فيه من الحكم فى محل النطق ، علم أن فائدة التخصيص هو التأكيد ، وأن المفهوم مفهوم موافقة كما فى آية النهى عن إيذاء الوالدين ؛ وإن لم تعرف حكمة مشروعية الحكم مطلقا ، أو عرفت ولكن لم تكن متحققة فى محل السكوت ، أو كانت متحققة ولكنها لم تكن أولى باقتضاء الحكم فيه ، علم أن فائدة التخصيص إنما هو نفى مثل الحكم عن محل السكوت ، وأن المفهوم مفهوم مخالفة .

أنواعه :

ينقسم مفهوم المخالفة ، عند القائلين به ، الى عشرة أقسام ، سنسردها ثم نبين كل قسم بشىء من التفصيل :

الأول : أن يرد الاسم العام فى النص مقترنا بصفة ، مثاله قوله عليه الصلاة والسلام : « فى الغنم السائمة زكاة » .

مكتبتنا العربية

الثانى : أن يرد النص مشتملا على شرط وجزاء ؛ مثاله قوله تعالى : « وإن كن أولات حمل فانفقوا عليهن » . وقوله عليه الصلاة والسلام : « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » .

الثالث : مفهوم الغاية ؛ مثاله قوله تعالى : « فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » ، وقوله تعالى : « ولا تقربوهن حتى يطهرن » وقوله تعالى : « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

الرابع : مفهوم إنما ؛ مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات » وقوله صلى الله عليه وسلم « إنما الربا فى النسيئة » وقوله صلى الله عليه وسلم « إنما الولاء لمن أعتق » وقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الشفعة فيما لم يقسم » .

الخامس : التخصيص بالأوصاف التى تطرأ وتزول بالذكر ؛ مثاله قوله عليه الصلاة والسلام : « الثيب أحق بنفسها من وليها » .

السادس : مفهوم اللقب ؛ وذلك كتخصيص الأشياء الستة فى الذكر بتحريم الربا .

السابع : مفهوم الاسم المشتق الدال على الجنس ؛ مثاله قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تبيعوا الطعام بالطعام » وهو قريب من مفهوم اللقب .

الثامن : مفهوم الاستثناء ؛ مثل قوله تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » .

التاسع : تعليق الحكم بعدد معين كتخصيص حد القذف بثمانين .

العاشر : مفهوم حصر المبتدأ فى الخبر كقولك : العالم زيد .

هذه هى أقسام مفهوم المخالفة عند من يراه ، وقد وقع خلاف بين الأئمة فى كل قسم منها ، هل هو يقرر حكما فى محل السكوت يخالف حكم المنطوق أولا ؟ ولما كانت الأدلة التى أقامها الفريقان المتخاصمان من الأهمية بمكان ، إذ هى تمس صميم اللغة والتشريع من جهة ، وتحقق للباحث عن علوم القرآن ذاتية من ذاتيات موضوع علم المنطوق والمفهوم من جهة ثانية ، وترشدنا الى مسلك الأئمة والمجتهدين فى جدلهم وحجاجهم وطريقة إقناع بعضهم بعضا من جهة ثالثة ، آثرت أن أتناول الكلام عليها فى كل قسم من الأقسام .

مكتبتنا العربية

القسم الأول :

موضوعه حكم مرتبط باسم عام مقيد بصفة خاصة ؛ مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « فى الغنم السائمة زكاة » هل يدل بمفهوم المخالفة على نفى الزكاة عن غير السائمة أولا ؟ ومعنى هذا النزاع أن من يقول بأن هذا النص يدل بمفهوم المخالفة على عدم وجوب الزكاة فى غير السائمة ، يقرر أن مفهوم المخالفة تثبت به الأحكام ، وأن له دخلا فى التشريع ، ومن ينفى ذلك يقرر العكس ؛ فالمثبتون هم الأئمة : الشافعى ، ومالك ، وأحمد بن حنبل ، ومن تبعهم ؛ والنافون هم : الامام أبو حنيفة ، وأصحابه ، ومن تبعهم .

أدلة المثبتين ومناقشتها :

الأول ـ قالوا : روى قتادة رضى الله عنه أنه قال : لما نزل قوله تعالى : « استغفرْ لهم أو لا تستغفرْ لهم إنْ تستغفرْ لهم سبعين مرة فلن يغفرَ الله لهم » قال النبى صلى الله عليه وسلم : قد خيرنى ربى فوالله لأزيدن على السبعين . ووجه الاستدلال أن شأن مفهوم المخالفة تقرير نقيض حكم المنطوق فى محل السكوت ، وقوله صلى الله عليه وسلم : فوالله لأزيدن على السبعين ، يفهم منه تغيير الحكم إذا زاد ، وهو ثبوت المغفرة حينئذ ، وهو نقيض الحكم المنطوق به ؛ ولا معنى لمفهوم المخالفة إلا هذا .

وقد ناقش النافون هذا الدليل بأن زيادة النبى صلى الله عليه وسلم على السبعين فى الاستغفار كما يحتمل هذا الذى ذكرتم يحتمل أيضا أنه أراد استمالة قلوب الأحياء منهم ، ترغيبا فى الدين ، لا لوقوع المغفرة ؛ وليس أحد الاحتمالين أولى من الآخر ، بل ربما كان الاحتمال الثانى أقرب تمشيا مع الآية الأخرى وهى قوله تعالى : « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم » دفعا للتعارض .

وسنوالى ذكر أدلة الطرفين ومناقشتها فى المقال الآتى ، إن شاء الله . والله الموفق ؟

مباحث لغوية

الابدال

بقلم فضيلة الشيخ محمد على النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

دواعى الإبدال

١٠ — وقد يدعو إلى الابدال تخصيص الكلمة ببعض المعانى من المعنى العام للمادة . ومن ذلك أن بعض اللغويين يقول : يقال : جَمَس لوَدَك وجَمَد الماء ، ولا يقال : جمس الماء ولا جمد الودك . وكان الأصمعى يخطىء ذا الرمة فى قوله : ونقرى سديف الشحم والماء جامس .

ومن ذلك تركيب جَلَف وجرَم . فجلف للقَفْر وجرم للقطع ، وغلب فى جرْم النخل أى قطع كِباسته . وقد يكون من فروع جرم حَرَم ؛ فحرمان الرجل حقه قطعه عنه ، والحرام مقطوع عن الاستعمال ، والحاء والجيم يتعاقبان فى العربية . يقال : محارَف ومجارَف للمحروم المضيق عليه فى الرزق ، ويقال : هو يحوسهم ويجوسهم . وقرىء قوله تعالى : «فجاسوا خلال الديار» فحاسوا ، ويقال : أَحَمّ ذلك الشىء وأجمّ إذا دنا وحضر . ومن أبدال هذه المادة صرم — وقد غلبت فى الهجر — . وقد كان هذا الابدال من عوامل نمو اللغة وتخصيص معانيها وتحديدها . وعرض له اللغويون فى باب « تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى » ومن هذا الضرب فى العامية أنهم يقولون سئيل للبارد الطبع الثقيل على النفوس ، وتئيل للثقيل فى الوزن والحمل .

ما يعرف به الابدال :

إن تعيين الأصل والفرع فيما أتى فيه الابدال غير يسير . ويشفع فيه ما يأتى :

١ — فمن ذلك موافقة إحدى المادتين فى حروفها للغة أخرى من اللغات السامية ، أو غيرها . ولا ينتفع بهذا إلا من أوتى حظا من علم هذه

مكتبتنا العربية

اللغات؛ وذلك نحو لص ولصت ، والأخيرة عند طيء ، وهي توافق اللفظة السريانية (لستا) . ويرى صاحب التطور النحوى (١) أن السريانية استعارتها من اليونانية وفى الفرنسية لست leste تعنى الخفيف فى حركته ، والمسرع فى عمله ، وهذا من خصائص اللص . فيبدو أن الفرنسية استعارت هذه الكلمة من اليونانية فهذا يهدى الى أن اللصت أصل اللص . ومن ذلك إير وهير للصبا ، وهو فى اليونانية أير ، ومنها الفرنسية air إير للهواء . ومن ذلك جَرْدَبان وجردمان ـ وهو الذى يضع شماله على شيء يكون على الخوان كيلا يتناوله غيره ـ وأصله كردهبان أي حافظ الرغيف . فيظهر من هذا أن الهاء هي الأصل ، وقد استعنا على ذلك بأصله فى الفارسية . ومن ذلك هِنْ فى موضع إن الشرطية ، وهى لغة طيء وهى توافق هن الآرامية التى معناها معنى إن العربية . ومن ذلك الفوم يرد بمعنى الثوم ، وقد فسر بعضهم الفوم بهذا المعنى فى الكتاب العزيز فى قوله تعالى « وفومها وعدسها » وهى فى قراءة عبد الله : وثومها وعدسها . ويرى صاحب التطور أن الأصل فيها الثاء ، والدليل على ذلك عنده أن الثوم بالعبرية شوم ، وبالآرامية توما بالشين والثاء الناشئتين عن الثاء . وإبدال الفاء من الثاء ورد فى جدف وجدث للقبر .

٢ — ومن طرق معرفة الأصل والفرع فى الإبدال أن يكون لإحدى الكلمتين أصل يتصل بمعناها دون الأخرى . ومن أمثلة هذا فروغ (٢) الدلو وثروغها ؛ فان الفرْغ والثرْغ مخرج الماء من بين عَرَاقِى الدلو ، وهذا المعنى يناسب التفريغ . فالراجح أن الفروغ هو الأصل . ومن ذلك أعصر ويعصر ، وهو اسم متبّه بن سعد بن قيس عيلان ؛ رووا أنه سمى بذلك لقوله :

أبنى إن أباك غيّر لونه مر الليالى ، واختلاف الأعصر

وكذلك الأرانب والأرانى ، والثعالب والثعالى ، وأصيلان وأصيلال ،

---

١ ـ ص ٣٣ ٢ ـ سر الصناعة ، حرف الفاء

مكتبتنا العربية

قال الفراء (١) : جمعوا أصيلا أصلانا ، كما يقال : بعير وبعران ، ثم صغروا الجمع وأبدلوا النون لاما . ويقال : أسود لوبى ونوبى ، وللحَرَّة لوْبة ونوبة ، والظاهر أن الأصل النوبة تشبيها بالنوبة : الجنس المعروف فى السودان . ويقال : العُبْرى والعِبْرى للسدر البرى الذى ينبت على الأنهار ، وللسدر الذى يشرب من الأنهار والمياه ، وما كان منه فى البر فهو الضال ؛ قال ذو الرمة :

قطعت إذا تخوفت العواطى ضروب السدر عبريا وضالا

والعبرى هو الأصل فيه ؛ إذ فيه النسبة إلى العِبْر ، وهو شاطىء النهر ؛ اذ كان ينبت عليه ، وقد حدث فيه تغيير النسب .

٣ — ومن الطرق فى معرفة الأصل والفرع أن تكون إحدى المادتين أوسع تصرفا من الأخرى ، فهى الأصل . فَخَـ ظ مفرعة عن حظ ؛ لأنهم لا يقولون فى الجمع إلا الحظوظ ، وكذلك يقولون : محظوظ ولا يقولون محفوظ ، ويقال للقمىء الصغير جُعْموس وجُعْموش ، فاذا أرادوا الجمع قالوا : هو من جعاميس الناس ، ولا يقولونه بالشين ، فالسين هى الأصل . ويقولون للدرع نَثْرة ونثلة ، فينبغى أن تكون الراء بدلا من اللام ؛ لقولهم : نثل عليه درعه ، ولم يقولوا . نثرها ، فاللام أعم تصرفا فهى الأصل(٢) . والحَزْم والحزن . ما غلظ من الأرض ، ويقال فى جمعهما الحزوم والحزون ، ويقال : أحزَنا أى صرنا إلى الحزونة ، ولا يقال : أحزمنا ، فهذا يرجح أصالة النون . ويقال : تركته وقيذا ، وتركته وقيظا ، قال ابن جنى(٣) . « والوجه عندى والقياس أن يكون الظاء بدلا من الذال ؛ لقوله عز اسمه « والموقوذة » بالذال ، ولقولهم : وقذه يقذه ، ولم يسمع وقظه ولا موقوظة ، فالذال إذن أعم تصرفا ، فلذلك قضينا بأنها هى الأصل » .

هل يتغير شكل الكلمة بالأبدال :

قد يكون فى طبيعة الفرع ما يقضى بتغيير شكله ، كالألاتى المبدلة من

---

١ ـ إبدال ابن السكيت ص ٥ ٢ ـ سر الصناعة ، حرف الراء

٣ ـ سر الصناعة ، حرف الظاء

مكتبتنا العربية

الأرانب ، فالياء صارت ساكنة فى حالتى الرفع والجر لثقل حركتهما عليها . ويقال : ذَوى العـودُ يذوى ، من باب رمى وذأى يذأى من باب منع . والظاهر أن الأخيرة بدل ؛ لـكثرة الأول وظهور مادته، فترى أن باب الفعل تغير لمـكان حرف الحلق ، ومما جرى فيه التغير شِيَرة فى شجرة . والتغيير تراه نادرا فى الإبدال إلا فى الإبدال الذى يكون لتخصيص المعنى ؛ وذلك نحـو الحبَل إذا قلنا : إنه بدل من الحبْل .

وقد عرض ابن جنى لتوافق كلتى الابدال فى الحركات فقال (١) : « البدل لايغير فيه الحركات ، إنما يوقع حرف موقع حرف ، وعلى ذلك عامة البدل فى كلامهم ، ألا ترى أن من يقول أَيْل فياتى به على الأصل ، إذا أبدل الياء جيما قال : أَجل ، فلم يعرض لشىء من الاسم سواها . ولم يزل شيئا عما كان عليه من أحوال حركته » وقد بنى ابن جنى على هذا الأصل أن شيرة ليست بدلا من شجرة ؛ لتغير الحركة فيه . ولـكنه عاد فأجاز البدل مع هذا ؛ كما كان جاه مقلوب وجه ، مع أن جاها فى تقدير جَوْه . قال : « فان قلت : فهل تجد جعل الياء فى شيرة بدلا من الجيم وجها ؟ فان الطريق الى ذلك ـ وإن كان فيها بعض الصنعة ـ أن تقول : إنه أراد شجرة ، ثم أبدل الجيم ياء ، كما أبدلت الياء جيما فى نحو الأَجل، وعلجّ وفقيمجّ ومُرَج ، فـكان حكمه أن يدع الشين مفتوحة فيقول : شَيرة . إلا أن العرب إذا قلبت أو أبدلت فقد تغير فى بعض الأحوال حركات تلك الـكلمة ؛ ألا ترى أن الجاه مقلوب من الوجه ، فـكان سبيله إذا قدمت الجيم وأخرت الواو أن يقال جَوْه فتسكن الواو ، كما كانت الجيم ساكنة فى وجه ، إلا أنها حركت لأن الكلمة لما لحقها القلب ضعفت ، فغيروها بتحريك ما كان ساكنا ؛ إذ صارت بالقلب قابلة للتغيير ، فصار التقدير جَوَه ، فلما تحركت الواو وقبلها فتحة قلبت ألفا . فقيل : جاه . فكما غيرت حال الجاه لما لحق الكلمة من القلب ، كذلك غيرت فتحة الشين فى شيرة الى الـكسرة لما لحق الجيم من القلب » .

---

١ ـ سر الصناعة ، إبدال الياء من الدين

مكتبتنا العربية

هل وقع ماجرى فيه البدل فى القرآن :

ورد فيه الفوم . وقد مرّ أنه بدل من الثوم ؛ وورد قوله تعالى : « فليملل الذى عليه الحق » ، وقوله تعالى : « فهى تملى عليه بُكرة وأصيلا » ، وقد قيل : إن الإملاء بدل من الإملال على حد الابدال فى تقضىّ وتقصىّ . وقد تقدم لك هذا قال الفراء : « أمللت لغة أهل الحجاز وبنى أسد ، وأمليت لغة بنى تميم وقيس » وترى أن القرآن جاء باللغتين جميعا .

الكلام المطبوع

قال أبو الحسن المدايني : لما هزم المهلب بن أبى صفرة قطرى بن الفجاءة قائد الأزارقة الخارجين على عبد الملك بن مروان ، بعث إلى مالك بن بشير فقال له : إنى موفدك الى الحجاج (وكان القائد العام) فسرْ اليه فانما هو رجل مثلك ، وبعث اليه بجائزة ، فردها مالك وقال : إنما الجائزة بعد الاستحقاق ، وتوجه .

فلما دخل على الحجاج قال له : ما اسمك ؟ قال : مالك بن بشير . فقال الحجاج : ملك وبشارة . كيف تركت المهلب ؟ فأجابه : أدرك ما أمل ، وأمن من خاف . قال الحجاج : كيف هو فى جنده ؟ فأجابه بقوله : والد رءوف . قال الحجاج فكيف جنده له ؟ فأجابه : أولاد بررة . قال : كيف رضاهم عنه ؟ قال : وسعهم بالفضل ، وأقنعهم بالعدل . قال : فكيف تصنعون إذا لقيتم عدوكم ؟ قال : نلقاهم بجدنا فنطمع فيهم ، ويلقوننا بجدهم فيطمعون فينا . قال الحجاج : كذلك الجد إذا لقى الجد . ثم قال : ما حال قطرى ؟ قال : كادنا ببعض ما كدناه . قال : فما منعكم من اتباعه ؟ قال : رأينا المقام من ورائه خيرا من اتباعه . ثم قال الحجاج : فأخبرنى عن ولد المهلب . قال : أعباء القتال بالليل ، حماة السرح بالنهار . قال : أيهم أفضل ؟ قال مالك : ذلك الى أبيهم . قال الحجاج : لتقولن . قال : هم كحلقة مضروبة لايعرف طرفاها .

قال الحجاج بعد ذلك : أقسمت عليك هل رأيت فى هذا الكلام ؟ قال : ما أطلع الله على غيبه أحداً .

فقال الحجاج لجلسائه : هذا والله الكلام المطبوع ، لا الكلام المصنوع .

مرتب الموظف أثناء حجه

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

إذا أراد موظف الدولة أن يؤدى فريضة الحج ، فهل يستحق شرعا مرتبه أثناء غيابه عن عمله الحكومى ، مع العلم بأنه سافر بموافقة حكومته ؟

هل ثبت فى التاريخ الاسلامى بعد تنظيم الديوان أن الحكومات الاسلامية أوقفت مرتبات موظفى الدولة لغيابهم عن العمل لأداء فريضة الحج ؟

عبد المطلب أحمد رمضان

الجواب :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ، فتفيد اللجنة بأن مقتضى نصوص فقهاء الحنفية « أن المدرس وغيره ممن يعمل للأمة براتب من بيت المال لا يستحق هذا الراتب مدة غيابه للحج ولو كان هذا الحج فرضا ؛ وذلك لأنه إنما يأخذ الراتب نظير تفريغه نفسه واحتباسه للعمل للأمة ؛ فاذا غاب زال هذا التفريغ وذلك الاحتباس ، فيزول استحقاقه ما دام السبب الذى من أجله استحق غير موجود . وذلك نظير المرأة التى تحج مع محرم لها ، والتى نص الحنفية أنها لا نفقة لها لزوال احتباسها لا من جهة زوجها ، وهذا كاف فى سقوط النفقة ، وإن كانت مضطرة لأداء فريضة الحج . وما ذكرنا هو مقتضى نصوص مذهب أبى حنيفة ومحمد ؛ ولعله من أجل ذلك قال المتأخرون إن المدرس لا يستحق معلومه فى الوقف مدة غيابه لأداء فريضة الحج .

أما عند أبى يوسف فلها نفقة الحضر لأنها مضطرة ومعذورة فى أداء الفريضة ، فزال احتباسها لا من جهتها ، وهذا كاف فى استحقاقها النفقة. وعلى قول أبى يوسف فالظاهر أن غياب المدرس ونحوه من عمال بيت المال لأداء فريضة

مكتبتنا العربية

الحج يبقى معه استحقاقه لما كان يتقاضاه كفاية له من بيت المال لأنه معذور ومضطر لاداء فريضة دينية يجب عليه أداؤها وتفريغ ذمته منها .

هذا هو ما يؤخذ من كلام فقهاء الحنفية ، وإن كنا لم نعثر على نص صريح فى مسألة المدرس الذى راتبه من بيت المال . نعم قد نص على أن الأصح ماذهب اليه بعض المتأخرين من أن القاضى يستحق كفايته يوم البطالة ، لكن لا تقاس مسألتنا على هذا ؛ لأن الحكم فى هذا عندهم معلل بقصد إراحة القاضى والاستجمام الذى يعود عليه بالنشاط فى عمله لخدمة الأمة .

واللجنة مع هذا ترى أن لولى الأمر أن يعمل بما يقتضيه مذهب أبى يوسف فى هذا الموضوع ، فيبقى لموظف راتبه مدة غيابه لأداء فريضة الحج ، مادام ليس فى ذلك ضرر بالمصلحة العامة ، وما دام فيه إعانة على أداء فريضة إسلامية. والله أعلم .

نقل الزكاة ـ استعمال الحرير الصناعى

وجاء إلى اللجنة أيضا الاستفتاء الآتى :

١ — عزمت بمشيئة الله تعالى على أداء فريضة الحج هذا العام ، واليوم الذى سأقف فيه بعرفات يوافق اليوم الذى أخرج فيه زكاة مالى ، فهل فى هذه الحالة يجوز إخراج الزكاة بعرفات أم أخرجها كالمتبع فى بلدتى بعد عودتى من الحج ، أو أفعله بواسطة شخص أمين ؟ وهل هذا الشخص يكون مسئولا أمام الله ؟

٢ — هل يجوز الاحرام بملابس حرير صناعى أم لا ؟ وهل يجوز استعمالها فى غير الاحرام أم لا ؟

٣ — موجود عندى بعض الفرش من الحرير الصناعى ونستعمله للزينة لا للغطاء ، فهل فى ذلك حرمة ؟

عبد الحكيم فتوح حلاوة

الجـــواب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين .

مكتبتنا العربية

أما بعـد ، فتفيد اللجنة بأنه يجوز صرف زكاة المال إلى فقراء المسلمين فى أية جهة كانوا ، والأفضل أن يصرفها المزكى إلى فقراء مكان المال الذى وجبت فيه الزكاة ، ولا ينقلها إلى بلد آخر إلا اذا كان من فى البلد الآخر قريباً له محتاجا يجوز دفع الزكاة اليه ، أو كان فقير البلد الآخر أحوج أو أورع أو أنفع للمسلمين ، كمدرس فقير ، ونحو ذلك .

وكما يجوز للمزكى أن يصرفها بنفسه يجوز أن يوكل عنه غيره فى ذلك .

أما الحرير الصناعى فليس مما حرم لبسه على الرجال من الحرير ، فيجوز استعماله للمحرم وغيره بأى وجه من وجوه الاستعمال فى اللباس والفرش وغيرهما . والله أعلم .

السبرتو

وجاء إلى اللجنة أيضا الاستفتاء الآتى :

حينما كنت بالجامع الزينبى بعد فجر يوم من أيام هذا الشهر سمعت من أحد الأساتذة الذين يلقون درس الوعظ فى الجامع المذكور أن الخمر نجسة ، فسألته عما إذا كان السبرتو المخلوط بالروائح العطرية نجسا ؟ فقال باصرار تام وتأكيد صريح : نعم إنه نجس . لهذا رأيت أن ألجأ مستفتيا فى هـذا الموضوع راجيا التفضل ببيان حكم الشرع فى السبرتو النقى وغير النقى ، وهو يدخل فى الخمر بنسب مختلفة .

حسن بدير

مدير قسم شئون البعثات — وزارة المعارف

الجواب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ، فتفيد اللجنة بأن السبرتو على ما قاله غير واحد من الفقهاء ليس بنجس . وعلى ذلك فالأشياء التى يضاف إليها السبرتو لا تنجس به . وهذا هو ما تختاره اللجنة للفتوى ، لقوة دليله ، ولدفع الحرج اللازم للقول بنجاسته . والله أعلم .

مكتبتنا العربية

كتابة عقود الربا

وجاء الى اللجنة أيضا الاستفتاء الآتى :

١ — أشتغل وكيل قضايا ومن أعمالى تحرير عقود رهن بفائدة ، فهل يحرم على تحرير هذه العقود من الوجهة الدينية ؟

٢ — بعض من يكلفونى بعمل لا يدفعون الأجر المستحق كاملا أولا يدفعونه أصلا مرتكنين على الصداقة ، ولذا أضطر لاضافة مبلغ على الرسوم بمعنى أن يكون الرسم جنيها فأطلب أكثر من ذلك محتفظا بهذا الفرق مقابل أتعابى ، فهل محرم على هذا ؟

٣ — يكلفنى أحدهم بانابة محام عنه بمعرفتى وإشرافى ، وأقوم من جانبى بجميع الأعمال الكتابية التى تتطلبها القضية ، ويعطينى مقابل ذلك جنيهين مثلا فأعطى المحامي جنيها ، وأحتفظ لنفسى بالجنيه الآخر مقابل ما أقوم به من الأعمال ، فهل محرم هذا ؟

الجواب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

أما بعد فتفيد اللجنة :

عن السؤال الأول : بأنه يحرم على الشخص أن يكتب عقدا فيه ربا ، ويدخل فى ذلك عقود الرهون بالفائدة ؛ فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لعن آكل الربا ، ومؤكله ، وشاهديه ، وكاتبه . ومايؤخذ من الاجر على كتابة هذه العقود من أكل أموال الناس بالباطل .

وعن السؤال الثانى : بأن أخذ المال على أنه من الرسم فى حين أن الرسم أقل مما يؤخذ ، حرام ، لأنه من التدليس والغش والكذب .

وعن السؤال الثالث : بأنه إذا كان يأخذ المال على أنه أجرة للمحامي فقط فى حين أن ما يدفعه له أقل من ذلك ، فهو أيضا من الغش المحرم ، وهو كذب وتدليس وأكل للأموال بالباطل . والله أعلم .

الانصات لخطبة الجمعة

وجاء الى اللجنة أيضا الاستفتاء الآتى :

ماقولكم فيما يقوله المرقى للخطيب فى يوم الجمعة مسندا ذلك القول الى

مكتبتنا العربية

النبي صلى الله عليه وسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه وهو « إذا رقى الخطيب على المنبر فلا يتكلمن أحدكم ، ومن يتكلم فقد لغا ، ومن لغا فلا جمعة له ، أنصتوا واستمعوا واعتبروا ، رحمكم الله » ؟ وقد تمسك به بعض أهل البلد زاعما بأنه حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مستدلا بوجوده مكتوبا على ظهر مجموع الخطب النباتية للمطبعة الهندية ، أو أنه ربما يكون في كتب الأحاديث التي ليست موجودة عندنا ، وأنه لو لم يكن حديثا لما أقره أسلافنا من قديم . ورده البعض بأنه ليس في كتب الحديث ولا في كتب الفقه ، بل الحديث الصحيح هو قوله صلى الله عليه وسلم : « من قال لصاحبه والامام يخطب . . . الخ » . والمرجو أن تبينوا لنا وجوه الصواب في هذا المقال ، هل هو حديث ؟ وفي أي قسم من أقسام الحديث ؟ وهل يجوز الاتيان به أم لا ؟

فاضل محمد معاوية — من كينا

الجواب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد ، فتفيد اللجنة بأن المعروف عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والامام يخطب فقد لغوت » أخرجه البخاري وغيره .

وروى هذا الحديث عن أبي هريرة وغيره بألفاظ قريبة من هذا اللفظ ، وفي بعضها عن غير أبي هريرة زيادة « ومن لغا فلا جمعة له » .

ولم يعرف عن أبي هريرة ولا غيره ما ورد في السؤال من قوله « إذا رقى الخطيب على المنبر فلا يتكلمن أحدكم ومن يتكلم فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له » وإن كان معنى هذا اللفظ واردا بألفاظ أخرى فيما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الموضوع . وأما قول ذلك والامام على المنبر فهو مستحدث لم يعرف في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا في عهد السلف الصالح ، وإن كان بعض الفقهاء قد استحسنه لما فيه من تنبيه الناس الى الانصات للامام إذا شرع في الخطبة كما هو المطلوب . وترى اللجنة الاقتصار على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه . والله أعلم ؟

عبد المجيد سليم
رئيس لجنة الفتوى

قبس من الأزهر

لمحة فى التشريع المقارن

لحضرة الأستاذ الدكتور فخر الدين الصاحب

يصطدم فى معظم القضايا الجزائية نوعان من الحقوق : حقوق الفردية ، وحقوق المجتمع ، فبأى نوع من هـذه الحقوق يجب أن يضحى ، أبحقوق الفرد أم بحقوق المجتمع ؟

لقد قرأت ما كتبه أحد الزملاء [١] فى التعليق على أحد الأحكام عن المدارس التى ازدهرت فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فى أوربا ، وخص منها بالذكر المدرستين : التقليدية ، والتقليدية الحديثة ، اللتين وقفتا بجانب الفرد ضد المجموع ، مع أن المدرسة الوضعية ذهبت الى عكس ذلك ، وكيف درجوا فى المغالاة بهذه الفردية حتى أوجدوا ما أسموه بنظرية الحق المكتسب droit acquis التى تحتم احترام الأحكام الجنائية حتى ولو كانت مبنية على الخطأ إذا كان ذلك فى صالح المتهم ، وفقاً لنظرية القضية المحكمة ، وكيف اعتبروا أن لمتهم من هذا الحكم حقاً مكتسباً ، ولم يقبلوا إلا النقض لمصلحة القانون .

لقد ذكرنى هذا البحث وهذا الخلاف فى أوروبا بين المدارس والعلماء فى أواخر القرن التاسع عشر وأواخر القرن العشرين ، بالخلاف الموجود بين الامامين الجليلين ، بل بين المدرستين الكبيرتين : مدرسة أبى حنيفة النعمان ، ومدرسة الامام الشافعى رضى الله عنهما ، والمشروحتين فى جميع مطولات الفقه الاسلامى ، فى باب حد القذف ؛ فهذا الخلاف ليس هو بالحديث فى نوعه ، بل هو موجود عند فقهاء الاسلام قبل أن يوجد عند الأوربيين بألف سنة ونيف .

(١) راجع ما كتبه الاستاذ عبد الوهاب حومد سلطان فى مجلة نقابة المحامين العدد ٦ سنة ١٩٤٧ ص ٣٥٥ .

مكتبتنا العربية

وإننى إذ أطرق هذا البحث الطريف الجلل ، إنما أطرقه لأبرهن أن معظم النظريات الأوربية الحديثة لم تكن مجهولة لدى فقهاء المسلمين ، بل إن المسلمين قد ضربوا فيها بسهم وافر ، وإن معظم الأحكام عندنا قد استخرجت من قواعد عامة ونظريات مدونة ومدروسة درسا وافياً . وإننى سأنهج فى بحثى هذا التقسيم الآتى : (١) تصادم حقوق الفرد وحقوق المجتمع كما وصفه فقهاء الاسلام فى كتبهم . (٢) الخلاف بين الامامين الجليلين وأدلة كل منهما (٣) حقوق الفرد وحقوق المجتمع فى القرآن . (٤) الخاتمة .

١ — لقد ذهب العلماء الى أنه فى معظم الاجرام والحدود يصطدم أمران متباينان يسميان فى هذا العصر : حق المجتمع وحق الفرد ، ويسميان عند فقهاء الاسلام : حق الشرع (أو حق الله) وحق العبد ، ففى حد القذف مثلا (وهو أن يتهم شخص شخصاً بعرضه) يصطدم فيه حقان : حق الشرع (أى المجتمع) وحق العبد (أى حق الفرد) . وبيان ذلك (١) أن هذا الحد شرع لدفع العار عن المقذوف ، وهو الذى ينتفع به على الخصوص — كالقصاص — فمن هذا الوجه هو حق العبد ، ثم إنه أيضاً شرع زاجراً ، ومنه سمى حداً ؛ والمقصد من شرع الزواجر كلها إخلاء العالم عن الفساد ، وهذا آية حق الشرع ، لأنه لم يختص بهذا إنسان دون غيره فنفائدة إخلاء العالم عن الفساد يستفيد منها كل فرد على وجه البسيطة ، فاذا تعارضت الجهتان فبأى منهما يجب أن يضحى ؟

٢ — الخلاف بين الامامين الجليلين وأدلة كل منهما :

لقد مال الامام الشافعى الى تغليب حق العبد تقديما لحقه على حق الشرع ، ودلل على صحة ماذهب اليه بحاجة العبد وغنى الشرع ، وأين الفرد من المجتمع ؟ أما الامام أبو حنيفة فانه ذهب الى تغليب حق الشرع (أى حق المجتمع) وقال: إن ما للعبد من الحق يتولى استيفاءه مولاه (أى الامام أو السلطان) ، فيصير حق العبد مرعيا بتغليب حق الشرع لامهدرا (وقد نصوا على أن حق المجتمع يتركب من مجموع حقوق الأفراد) ، وليس كذلك عكسه ، لأنه لاولاية للعبد فى استيفاء حقوق الشرع .

(٢) فتح القدير الجزء ٤ ص ١٩٧

مكتبتنا العربية

وهكذا . فقد ذهب كل من الشافعي وأبي حنيفة الى النظرية التي يدين بها ، ودلل على صحتها ، ثم خرّج كل منهما الفروع المختلفة وبنى الأحكام عليها . وإنني سأسرد بعضا من هذه الأحكام .

(ا) العفو ـ إذا ثبت عند الحاكم القذف والإحصان ثم عفا المقذوف عن القاذف ، لا يصح منه ذلك ، ويحد القاذف عند أبي حنيفة ، مع أنه يصح هذا العفو عند الامام الشافعي ؛ بخلاف العفو عن القصاص فانه يسقط بعد وجوبه ؛ لأن المغلب فيه هو حق العبد (أي حق الفرد) . والحاكم الآن تتبع مذهب أبي حنيفة ، فان المدعي الشخصي بعد إقامته للدعوى لو عفا عن المتهم وأسقط حقه لا يؤثر ذلك على الحقوق العمومية ، فان النيابة العامة تلاحق المتهم باسم الحق العام في معظم الدعاوى وتنزل به العقاب .

(ب) ومنها أنه لا يجوز الاعتياض بالمال عن حد القذف عند أبي حنيفة ؛ أما عند الشافعي فانه يجوز ، فهو حق من حقوق الفرد الخاصة .

(ج) ومنها أنه يجرى فيه التداخل عند أبي حنيفة حتى لو قذف شخصا مرات أو قذف جماعة ، كان فيه حد واحد إذا لم يتخلل حد بين القذفين . وعند الشافعي لا يجرى فيه التداخل لأنه يتعلق بكل شخص منهم على الانفراد .

(د) ومنها الإرث ؛ فعند الشافعي يورث الحد ، وعند أبي حنيفة لا يورث . لقد نص فقهاء الحنفية على أن المقذوف إذا مات بطل الحد على القاذف ، إذ الإرث يجرى في حقوق العباد لا في حقوق الله تعالى ، أي إنما يرث العبد حق العبد بشرط كونه مالا أو ما يتصل بالمال كالكفالة ، أو فيما ينقلب الى المال كالقصاص ؛ والحد ليس شيئا منها فيبطل بالموت . أما الشافعي فقد ذهب الى أن الحد يقام على القاذف حتى بعد موت المقذوف ؛ لأن الامام أهدر حق الشرع ، وذهب الى تغليب حق الفرد ، والإرث يجرى كما قلت في حقوق العباد .

٣ — حقوق الفرد وحقوق المجتمع في القرآن :

لقد ورد في القرآن الكريم إشارة صريحة الى التفريق بين حقوق الفرد وحقوق المجتمع ، وإلى العفو عن كل منهما ؛ ولقد أشار الى ذلك بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً

مكتبتنا العربية

غليظ القلب لا نفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين » .

فقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية (١) أن جماعة من المسلمين انهزموا في غزوة أحد وتركوا النبي في وسط المعمعة ، واشتد الهول وحمي الوطيس ودارت رحا الحرب الطحون ، ثم ثابوا إليه بعد أن جرى له عليه السلام ولمن ثبت معه من أصحابه ما جرى ، فكان مقتضى الجبلة البشرية أن يعنف الرسول هؤلاء الفارين ويلومهم على فعلتهم النكراء ، فهل حصل شيء من ذلك ؟ كلا لم يحصل شيء من ذلك ، إنما الذي حصل أن ربط الله على جأش النبي وأفاض عليه من رحمته ما جعل النبي رفيقا بأصحابه ، لين الجانب جم المواساة ، فثبت مع أنه عراه ما عراه ، ثم ما زجرهم ولا عنفهم على الفرار ، بل آساهم وعزاهم في مصابهم وعفا عنهم . وتقريراً لعمله هذا نزل قوله الكريم : « فبما رحمة من الله لنت لهم » أي فبرحمة من الله لنت يامحمد . وهنا (ما) زائدة في « فبما رحمة من الله » ولو كنت يامحمد فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك . « فاعف عنهم » أي فاعف عنهم يا محمد فيما يتعلق بحقوقك الشخصية . وهذا تقرير من الله لإسقاط النبي حقوقه الشخصية عنهم ، لأن جرمهم هو ترك النبي ، فهي جريمة على النبي نفسه وعلى الدين . « واستغفر لهم » أي اطلب لهم يامحمد من الله تعالى أن يغفر لهم فيما يتعلق بحقوقه إتماماً للشفقة وإكمالا للتربية ، أي اطلب من الله أن يسقط عنهم الحقوق العمومية . « وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » وقد مدح الله أهل العفو في محكم كتابه حيث قال الله لرسوله « فاصفح الصفح الجميل » وقال تعالى « فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » . وقال : « والعافين عن الناس » وقال : « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » .

الخاتمة : وهكذا فإنك ترى معي أيها القارئ الكريم كيف أن الله قد فرّق بين حقوق الفرد وحقوق المجتمع في كتابه الكريم ، وكيف أنه قد حث على العفو ، وكيف أن المدرستين الكبيرتين اللتين يحمل لواء الأولى منهما أبو حنيفة النعمان المتوفى سنة ١٥٠ بعد الهجرة ، ويتزعم الثانية منهما الامام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ هجرية قد سبقتا العلماء الأوروبيين والمدارس

(١) تفسير الألوسي الجزء ٤ ص ٩٤

مكتبتنا العربية

التى ازدهرت فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى هذه النظريات ؛ وكيف استخرج العلماء بعد ذلك الأحكام الكثيرة ، وفرعوا على هذه النظريات فروعا عديدة ، إلا أن علماء الاسلام لم يذهبوا الى المغالاة والإفراط فى مذاهبهم وآرائهم كما حصل فى عصرنا هذا حين أوجدوا ما أسموه (نظرية الحق المكتسب) التى تحتم كما قلت احترام الأحكام الجنائية حتى ولو كانت مبنية على الخطأ إذا كان ذلك فى صالح المتهم وفقا لنظرية القضية المحكمة (١) Respecte de la chose Jugée وضحوا بحقوق المجتمع .

وخلافا لهذا كله فان الأحكام عندنا قابلة للنقض إذا ثبت وجود الخطأ فيها ، وكانت مخالفة للقرآن أو السنة أو الاجماع ، فقد جاء فى شرح الهداية ما نصه « وإذا رفع الى القاضى حكم حاكم أمضاه ، إلا أن يخالف الكتاب أو السنة أو الاجماع » ، فعند ذلك ينقض . وقد ثبت عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أنه رجع عن حكمه فى بعض الأحيان ، فقد أخرج النسائى أن النبي أُتى بلص فقال « اقتلوه » قالوا يارسول الله : إنما سرق، قال « اقطعوه » فقطع .. الحديث.

وروى أن عمر بن الخطاب أتى بامرأة زنت فأقرت فأمر برجمها ، فقال على كرم الله وجهه : لعل بها عذراً ، ثم قال لها : ماحملك على الزنا ؟ قالت : كان لى خليط وفى إبله ماء ولبن ولم يكن فى إبلى ماء ولا لبن فظمئت فاستسقيته فأبى أن يسقينى حتى أعطيه نفسى ، فأبيت عليه ثلاثاً ، فلما ظمئت وظننت أن نفسى ستخرج أعطيته الذى أراد ، فسقانى . فقال على : الله أكبر! ثم تلا قوله الكريم « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم » فخلى عمر سبيلها .

وهذا رجوع عن حكمه الأول الذى قضى به برجمها لمخالفته القرآن .

وقصارى القول وجماعه يجب أن نعتقد عن يقين أن ليس فى الحضارة الغربية شىء يصح أن يقال إنه جديد فى الأمور النافعة إلا وله أصل لدى علماء الإسلام وإن كان كنزاً مستوراً أو جوهراً مخبوءاً .

وبعد ، هذا هل يصح أن نترك التشريع الاسلامي ونأخذ عن التشاريع الاوربية ؟ إن هذا لأمر عجاب !

---

(١) قانون الجزاء تأليف كارو R. Garrand الجزء الخامس ٥٤٨

البلاغة العربية
وحاجتها الى التجديد

لفضيلة الأستاذ الشيخ على محمد حسن العمرى
المدرس بمعهد القاهرة

—

فى العالم العربى اليوم يقظة فكرية تهدف الى التجديد فى شتى العلوم ، وربما جمح بعض قادة النهضة العلمية فحاول أن يهدم قديمنا ، ويستغنى بجديد الناس ؛ كما أن بعض العقول لا تزال تعيش فى ألفاف الماضى السحيق ، ولا غناء فى إصلاح ما لم يقم على احترام النافع المفيد من القديم ، والأخذ بالنافع المفيد من الجديد . وهذا بحث لعله يعين على التهدى الى سواء المحجة ، حين ينظر الناظرون فى تجديد البلاغة العربية ، وإصلاح مناهجها .

وإن علوم البلاغة لفى شديد الحاجة إلى من يجدد أخلاقها ، ويجلو صدأها ؛ ولكنها لا تظفر إلا بالدعاوى العريضة الكاذبة ، فبعض العلماء قنع بأن يجمع الأشتات ، ويضيف بعض النماذج ، ثم يدعى أنه فى البلاغة ألف ، وبعضهم يعمد إلى الورق الصقيل ، والطبع الأنيق ، ليقال إنه فى البلاغة [illegible] ، ولعل شر الثلاثة هؤلاء الذين يهدمون ، ولا [illegible] لكان فيهم أمل ، ولكنهم يصرون [illegible] إذا أردنا توطيد أركان الاصلاح العلمى [illegible] ترضى الذهنية الجديدة — أن نكشف [illegible] على علاجه ، وبذلك نأخذ الطريق على [illegible]

وفى رأيى أن أول ما نبدأ به هو إصلاح [illegible] الذى يدرس ، فليس يكفى فى التجديد أن نهدم [illegible] على نحو جديد ، وإنما العمل أولا فى خلق جيل جديد يدرس البلاغة على طريقة منتجة صالحة ، وحينئذ يخرج العالم الذى يستطيع التجديد على هدى وبصيرة .

ولم يعد خافيا على أحد أن الدراسة فى المعاهد المصرية على اختلاف الوانها ـ فى البلاغة ـ ليست بذات غناء ، فإما دراسة قاعدة بلا تطبيق ، وإما دراسة تطبيق بلا قاعدة ؛ ولا بد للدراسة الصحيحة من الجمع بين القاعدة على مداها الواسع ، والتطبيق على أفقه الفسيح . كما لم يعد من الخفى أن الدراسة تدور كلها حول محور واحد لا تتعداه ، فمنذ لخص الخطيب القزوينى الجزء الثالث من كتاب «مفتاح العلوم» للسكاكى فى متنه « التلخيص » والدارسون يطوفون حوله تعليما ، وتأليفا ؛ فهم يضعون له الشروح ، ويؤلفون الحواشى على هذه الشروح ، ويكتبون التقارير على هذه الحواشى ؛ وبعضهم لخص التلخيص فى متن سماه « أقصى الأمانى » ، وقد أعقب عصر الخطيب عصور انحطاط أدبى ، وسيطرة للذهنية العلمية ، فكانت المؤلفات أشبه بالقوانين القضائية ، والنظريات الهندسية ، وكان الجدل اللفظى على أشده فى هذه المؤلفات ، وهو جدل جاف أشبه بشرح القوانين .

وإذا نظرنا الى منهج الدراسة فى الأزهر ، مثلا ، وجدنا دراسة البلاغة تدور حول هذا المتن أيضا ؛ ففى المرحلة الأولى من الأقسام الثانوية يدرس كتاب « زهر الربيع » أو « المنهاج الواضح » وهما على طريقة التلخيص شواهد ، وقواعد ، وإن كان المؤلف الثانى أوضح عبارة ، وأغنى نماذج ؛ وفى المرحلة الثانية يدرس مختصر السعد ، وهو شرح على هذا المتن ؛ وفى كلية اللغة العربية يدرس [illegible] وهو كالشرح لهذا المتن أيضا ؛ وفى المرحلة الأخيرة يدرس [illegible] البلاغة » وفصل من « دلائل الاعجاز » ولكنها دراسة [illegible] الدائرة القزوينية ؛ فهمّ المدرس والطالب أن يرجعوا هذه الفصول الأدبية [illegible] قواعد مضبوطة ، حتى يجوز الطلاب الامتحان ، ويحيء [illegible] فى الشهادة [illegible] ؛ فهو لا يختبر تذوق الطالب للأساليب [illegible] فقهه للأسرار البلاغية ، وإنما يختبر فى الغالب إدراكه لفلسفة [illegible] وشطحات [illegible] . وليس الحال فى غير الأزهر بأفضل منها فى الأزهر ؛ فهناك يعنى الطالب قشورا لا تربى ذوقا ، ولا تعلم علما ، وإنما هى التقصير والتقرير .

مكتبتنا العربية

أما الشواهد — فى كتبنا — فأمرها عجب من العجب ؛ فهى لم تتغير منذ عهد السكاكى والخطيب ، وأكثرها من الدرجة الثالثة فى الجودة ، وكثير منها ساقط ردىء ، وهمّ العلماء منها إثبات القاعدة ، وربما وقفوا عند بيت يتيم ، وهو محتاج إلى أليف ، فقد استشهدوا بهذا البيت :

كما أبرقتْ قوماً عطاشاً غمامةٌ فلما رأوها أقشعت وتجلت

فهنا المشبه به ، واذا سألت : أين المشبه ؟ أجابك أكثر الشراح بأنه بيت لا ثانى له ؛ أما شرحهم حين يشرحون ، فقد يتعدى دائرة الحس الأدبى ، إلى تحقيقات لفظية تذهب بجمال المعنى ومائه . كتب سعد الدين شرحا لهذا البيت :

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعى فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

قال : « فأنت بمرأى من سعاد أى بحيث تراك سعاد ، وتسمع صوتك ، يقال : فلان بمرأى منى ومسمع ، أى بحيث أراه ، وأسمع صوته ، كذا فى الصحاح ، فظهر فساد ما قيل إن معناه أنت بموضع ترين منه سعاد ، وتسمعين كلامها ، وفساد ذلك مما يشهد به العقل ، والنقل » .

وقال البنانى تعليقا على هذا « أما النقل فما نقل عن الصحاح ، وأما العقل فلأن المناسب أن يكون داعى الأمر بالتصويت سماع غير المصوت له . لا سماع المصوت لصوت الغير ، ويخدشه أنه إنما يكون كذلك إذا كان الغرض من التصويت إسماع الصوت ، وأما إذا كان الغرض إظهار النشاط كالبلابل تترنم بمشاهدة الأنوار ، والأزهار فلا ، وربما يؤيده أنه لم يقتصر فى داعى الأمر بالتصويت على السماع بل ضم اليه الرؤية ، بل قدمها . وغاية ما يمكن أن يقال : معنى شهادة العقل بفساده أنه يحكم بفساد توجيه يخالف النقل ، وعنه مندوحة . اهـ جربى . وقوله : إظهار النشاط أى نشاط تلك الحمامة كما يدل عليه عبارة ابن يعقوب ونصها : أما اذا كان المقام مقام إظهار أن المأمور فى موضع النشاط ، والطرب برؤية المحبوب ، وسماع كلامه ، كان المناسب : اسجعى أى اهتزى ، واطربى من شهود سعاد ، وسماع كلامها اهـ . وقوله : وربما يؤيده الخ أى لأنه لو كان الغرض سماع الصوت لم يكن لذكر الرؤية وجه ؛ قال شيخنا الملوى فى شرح ألفيته : قد يقال الغرض الأمر بفعل ما يرضى المحبوب ،

أو يستعطفه ، ووقوع ذلك الفعل مع رؤيته ، وسماعه أتم وأقوى من وقوعه بدونها . اهـ . أى فالجمع بين رؤية الحمامة وسماع صوتها أتم وأقوى فى طرب المحبوبة وانبساطها ، ورضاها . تأمل . ووجه السيرافى الفساد عقلا بأن المحب إذا رأى المحبوب انفعل واندهش فيفسد عليه طريق الكلام ، والفسادَ نقلا بأن من لابتداء الغاية . فابتداء الرؤية من سعاد فهى الرائية لا المرئية . اهـ . وفيه أن من الابتدائية تدخل على المرئى أيضا ، نحو رأيت القوم من أولهم الى آخرهم . ووجه عبد الحكيم شهادة العقل بأنه لو كان كما زعم هذا القائل لكان المعنى اسجعى أيتها الحمامة فانك بمكان تسمعين فيه صوت سعاد مع أنه لايحسن فى نظر العقل طلب التصويت عند سماع صوت المحبوب ، بل اللائق طلب الإصغاء عند سماع صوته ، فكان الواجب على هذا الزعم أن يقول : اسكتى وأنصتى ، وأصغى . اهـ . وما مرّ عن ابن يعقوب والسيرافى يفيد أن سعاد محبوبة للحمامة ، كما أنها محبوبة لغيرها ، ولا مانع منه . وكتب أيضا قوله : والنقل مستغنى عنه لأنه قد تبين فساده من جهة النقل بكلام الصحاح والتفريع عليه بقوله فظهر فساد الخ ، فكان الأولى أن يقول : والعقل يشهد أيضا بفساده » .

أشهد لقد مللت من كتابة هذا الشرح ، دون أن أعمل فكرا فى فهمه ، وهو بعدُ شرح لا نسيم فيه ، ولا روح ، وما دام الهدف من الشاهد هو تحقيق القاعدة ، وما دام الشرح على هذه الطريقة العلمية ، فلا يرجى من وراء ذلك خير ، وليس أدل على إخفاق دراسة البلاغة ، من أن المتعلمين ، والمعلمين أحيانا ، لا يستطيعون فهم الأسرار البلاغية فى الكلام ، وهمهم أن يقولوا : إن فى هذه الفقرة تشبيها ، وفى تلك استعارة ، وقد حذف المسند إليه هنا للعلم به أو للخوف منه أو عليه . ولما كانت هذه الأمور هينة سهلة فقد انصرف الطالب الى فهم عبارة الكتاب ، فيغرق فى خضم واسع من المناقشات اللفظية ، وبذلك أصبحنا ـ مثلا ـ ندرس كتاب السعد فى البلاغة ، ولا ندرس البلاغة فى كتاب السعد . ومن عجب أن واضع المنهج هدف الى هذا . وإذا كان لابد من دراسة أساليب المؤلفين فليكن ذلك فى علم « آداب اللغة العربية » . كما أنه ليس أدل على إخفاق هذه الدراسة من أن الأزهر أنشأ شعبة مدتها

مكتبتنا العربية

ست سنوات لدراسة البلاغة ، وآداب اللغة ، وكان الهدف أن تخرج للناس جرجانيا آخر ، وسكاكيا ثانيا ؛ ومن نظمها ألا يتخرج الطالب حتى يقدم رسالة فى أحد هذين العلمين ، فرأينا جمهرتهم يطرقون أوسع البابين فيقدمون رسائلهم فى تراجم الشعراء ، وما إليها ، ولم نر لواحد منهم ـ مع كثرتهم ـ أى جهد فى خدمة البلاغة العربية ، وماذلك إلا لأن دراسة البلاغة لم تنضج بعد .

والسبيل الى السمو بهذه الدراسة أن نترسم خطى الأسلاف فى دراستها ، ولا نقتصر على نهج واحد هو نهج السكاكى ، ومن جاءوا بعده ؛ ولهذا أحب أن ألمح الى طرائق المتقدمين فى دراستها .

ويمكن أن نعتبر السكاكى فاصلا بين عهدين ؛ فقد كان العلماء فى العهد الأول يتناولون البلاغة على أنها فن ؛ يبحثون فى الأساليب العربية ، ويضعونها تحت مطرقة النقد ، ثم يصلون الى الهدف من الجودة أو الرداءة ، ولم يكن هدفهم استخراج قاعدة ، أو استنباط ضابط ؛ يتضح ذلك فيما كتبه الجاحظ وقدامة ، والعسكرى ، والامام عبد القاهر ، والزمخشرى ، وما كتبه النقاد القدامى كعبد العزيز الجرجانى ، والآمدى ، وغيرهما . . . ولا نعدم فى هذا العهد ميلا الى التقعيد والتعقيد معا ؛ فقد كان علماء الكلام بصفة عامة ، والمعتزلة منهم بصفة خاصة ، يتناولون المسائل البلاغية بحدود ضابطة ، ومن هنا نشأت المدرسة الكلامية بجانب المدرسة الأدبية ، وإن كان أثر الأدبية فى هذا العصر أقوى ، وأظهر . فلما جاء السكاكى ، وكان صاحب فلسفة ومنطق ، حاول إخضاع البلاغة للقواعد [illegible] كعلم النحو ، وعلم الصرف ، وغيرهما من العلوم المقعدة ، فأدخل فيها [illegible] الفلسفية [illegible] فى أوصالها الروح المنطقية ، وصبها فى قوالب جافة [illegible] خيله ورجله » ، وزاد الطين بلة فرفع عقيرته [illegible] وبأن أصول الفقه جزء من علوم البلاغة . وجاء [illegible] السكاكى أيما تأثر ، ووجدوا عندئذ إرضاء لذهنياتهم [illegible] وذهبوا يدافعون عن آرائه ، ويتلمسون الصواب لأخطائه .

فاذا أردنا النهوض بالبلاغة فلا مندوحة من أن نأخذ بهاتين الطريقتين ، على أن نهذب الطريقة الثانية ، فتحذف من الكتب الأبحاث المنطقية ، والأبحاث

الفلسفية ، وما اليهما ؛ نستغنى عن بحث الدلالات ، وعن الجامع العقلى ، والوهمى والخيالى ، وعن الاطالة فى بحث التعاريف ، ومحترزات القيود ، ولا نجعل لمباحث الأصوليين هنا موضعا ؛ ثم يجب أن نستغنى عن الخلافات اللفظية ، كالخلاف فى الاستعارة : هل هى مجاز عقلى أو لغوى ، وكالاختلاف فى المجاز العقلى بين السكاكى والجمهور ، فانه لا معنى لأن يبذل الطالب وقتا وجهدا فى خصومة عنيفة ، يطالع فيها حجج الفريقين ، ويتعب نفسه فى تفهم جدل الخصمين ، ثم يقال له أخيرا « إن الخلاف لفظى » أو يجد النتيجة لا تكافىء الجهد ؛ ثم ندرس — على هذا الضوء — فى المرحلة الأولى من القسم الثانوى كتابا على طريقة التلخيص ، مع مراعاة اختيار شواهد جديدة جيدة ، ومع المحافظة على صورة القاعدة ومنهجها ؛ وفى المرحلة المتوسطة ندرس كتابا فيه جميع القواعد مبسطة مختصرة ، ويجب أن يكون ثناه نماذج عربية فصيحة ، ويكون على المدرس شرح هذه الشواهد شرحا نقديا ، وربطها بقواعدها ، وهذا الدرس يعتبر إعادة لما درس فى السنتين السابقتين . ولا يعوقنا أن مثل هذا الكتاب لم يوضع بعد ، فما أهون وضعه إذا خلصت النيات !

أما فى المرحلة الأخيرة من هذا القسم فيدرس « الايضاح » ، ولكن بعد حذف ما أوجبنا حذفه سابقا ، وبعد شرح شواهده شرحا نقديا أدبيا ؛ والى هنا نقف عند الطريقة الكلامية ، ونبتدىء الطريقة الأدبية فى كلية اللغة العربية فندرس كتاب الطراز ، وكتابى عبد القاهر ، وليس هذا بالأمر الصعب بعد ما أعددنا الطالب فى ثانوى هذه الدراسة . ويجب أن ندرس مادة النقد الأدبى بجانب هذا على أنه مادة مستقلة ، فندرس الوساطة والموازنة ، ونتعرف على جهود العلماء فى النقد .

ولا يفوتنى أن أنبه الى ضرورة العناية بدراسة نشأة علوم البلاغة ، فانه من المحال أن يكون سبب علم معالم فى عبد القاهر أنه نحوى ألف فى البلاغة ، وفى السكاكى أنه عالم له اسم رهيب مخيف .

وبعد ، فهذا رأى أطرحه أمام من تعنيهم نهضة البلاغة العربية ، وأدعوهم أن يضعوا النظر فيه ، فانه سيجىء اليوم الذى يقول فيه التاريخ : لقد قال قصير « لو كان يطاع لقصير أمر » ، والله الهادى الى سواء السبيل ؟

المخيلة وصلتها بالوحى والالهام

لحضرة الأستاذ الدكتور سعيد زايد

نشد أفلاطون مدينة فاضلة عند الفارابى يتحقق لسكانها السعادة الكاملة ، وأسند رئاسة هذه المدينة الى فيلسوف ؛ لأنه فى نظره الرجل الذى اكتملت لديه كل صفات الكمال ... وأعجب الفارابى بمدينة أفلاطون ، وأراد أن يقيم مدينة أخرى على غرارها ، ولم ير أن يسند رئاسة مدينته الى فيلسوف بل رأى إسنادها الى نبى .

واذا كان فيلسوف الإغريق قد فرض فى رئيس مدينته حاسة سادسة ، هي القدرة على إدراك الحقائق العامة ، وعلى تفهم المعقولات الصرفة ، فان فيلسوف الاسلام قد فرض فيه قوة نادرة فى المخيلة حتى يستطيع معها الاتصال بالعقل الفعال ، ليتقبل منه الوحى والإلهام .

فما هي المخيلة ، وما مقدار صلتها بالوحى والإلهام ؟ يعرفها الفارابى بأنها القوة التى بها يحفظ الانسان ما رسم فى نفسه من المحسوسات بعد غيبتها عن مشاهدة الحواس ، وأنها القوة التى تقوم بخدمة القوة الناطقة .

وتلعب المخيلة دوراً هاماً فى علم النفس عند الفارابى ، إذ تنفذ إلى نواحى الخصائص النفسية المختلفة ؛ فان لها صلة قوية بالميول والعواطف . كما أن لها دخلا فى الأعمال العقلية والحركات الإرادية ، وتمد المخيلة القوى النزوعية بما يستثيرها ويوجهها الى غرض ما ، وتغذى الرغبة والشوق بما يؤججها ويدفعها الى السير فى الطريق الى النهاية ؛ والى جانب هذا تحتفظ المخيلة كما قلنا بالآثار الحسية ، وصور العالم الخارجى المنقولة الى الذهن عن طريق الحواس . وللمخيلة فوق قدرتها على الاحتفاظ بما يأتيها من صور ، قدرة على الابتكار ، وهو ما يسميه علم النفس الحديث بالخيال المبدع ، وهو الذى يستطيع بواسطته الإنسان أن يؤلف ويربط الأفكار والصور بطريقة جديدة مبتكرة ، بحيث يخلق شيئا جديدا لم يكن معهودا من قبل ، وتنتج عن ذلك الأحلام والرؤى .

مكتبتنا العربية

وسنحاول مع الفارابى توضيح أثر المخيلة فى الأحلام ، إذ بتفسيرنا معه هذه الأحلام تفسيرا علميا سيكلوجيا نستطيع معه كذلك تفسير النبوة وآثارها ؛ ذلك لأن الإلهامات النبوية كما يقول عنها الفارابى قد تظهر فى صورة الرؤيا الصادقة ، أو فى صورة الوحى فى حالة اليقظة ؛ وقد بين الفارابى هاتين الصورتين فى فصلين متتاليين فى كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » تحت عنوان « القول فى المنامات » « والقول فى الوحى ورؤية الملك » .

ففى حالة النوم تكون القوى التى تتصل بالمخيلة فى حالة سكون ، فتنفرد المخيلة بنفسها وتعود إلى ما احتفظت به من الصور الحسية التى أوردتها عليها القوة الحسية أثناء اليقظة ؛ ولما كان للمخيلة كما قلنا قدرة على الاختراع فإنها تخلق من هذه الصور المحفوظة لديها صورا أخرى جديدة ، بأن تركب بعضها الى بعض وتفصل بعضها عن بعض ؛ على أنها بجانب قدرتها على الاختراع لها قدرة عظيمة كذلك على المحاكاة والتقليد ، واستعداد كبير للانفعال والتأثر ، فهى تحاكى القوة الحسية والنزوعية ، فيقوم الانسان أثناء نومه بأعمال تصور خصائص هذه القوى من غضب أو شهوة أو ما شاكل ذلك . وباختصار فان أحوال النائم العضوية والنفسية وإحساساته ذات أثر واضح فى مخيلته ، وبالتالى فى تكوين أحلامه ؛ فاختلاف هذه الأحلام يرجع إلى العوامل المؤثرة فيها ؛ ومن هنا نحلم بالماء والسباحة فى الوقت الذى يكون فيه مزاجنا رطبا ، وعلى كل فان الميول الكامنة والإحساسات السابقة أو المصاحبة لحلم ما لها دخل عظيم فى تكوينه وتشكيله .

هذا هو رأى الفارابى فى الأحلام ، نحب قبل أن نتعرض للجانب الميتافيزيقى للمخيلة وهو اتصالها بالعقل الفعال ، أن نقف وقفة نقارن فيها بين رأى المعلم الثانى فى الأحلام ، ورأى السيكلوجية الحديثة فيها ؛ وخشية من أن تطول وقفتنا سنختار نظرية مبرزة فى هذا الميدان ، وهى نظرية فرويد .

تتلخص نظرية فرويد فى أن الأحلام وسيلة للتفريج عن العواطف والشهوات المكبوتة ، فهى عبارة عن مجموعة من الميول والرغبات والآمال المنحطة وغير المنحطة تظهر عند ما ينام العقل الواعى ، فيحلم الضعيف أنه قهر

مكتبتنا العربية

عدوه القوى ، ويحلم الممتنعون عن الاختلاط الجنسي بالأحلام المتعلقة بالجنس، وبالجملة يحلم الجوعان فى سوق الخبز ، كما يقول المثل العامى ؛ فأحلام الأشخاص العاديين هى أعظم منفذ للرغبات المضغوط عليها . ويقول فرويد إن جل هذه الرغبات إن لم يكن كلها يرجع إلى غريزة المحافظة على النفس والغريزة الجنسية بخاصة . والعلامة فرويد يحصر نفسه بهذا التفسير فى دائرة ضيقة حين يقول إن الأحلام ما هى إلا رغبات لم نستطع تحقيقها أثناء اليقظة لقوة العقل الواعى وخوفه من مخالفة قوانين المجتمع ، فعند ما ينام هذا العقل ينطلق العقل الباطن من عقاله يعمل كيفما يشاء . فهو بقوله هذا قد اتجه الى الماضى وإلى الماضى فقط .

أما عند الفارابى وإن فهمنا من حديثه أنه يقول بعقل باطن وعقل واع ، وأن العقل الباطن هو خزانة الذكريات أو الآثار الحسية فاننا لا نجد عنده مايقصر الأحلام على تحقيق رغبات مكبوتة ؛ زد على ذلك أن المعلم الثانى لم يتجه إلى الماضى فقط فى تفسير الأحلام بل اتجه إلى المستقبل أيضا ؛ والرؤى الصادقة عنده دليل على ذلك ؛ فيوسف الصديق عند ما رأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين ، تحققت رؤيته فى المستقبل فى أرض مصر ، وكذلك محمد عليه الصلاة والسلام عندما كان نائما فى غار حراء ثم جاءه جبريل بأول آية من آيات التنزيل على نحو ما هو معروف لدينا ، دلت رؤيته على تباشير رسالة نبوية ... ولكننا نلاحظ أن الفارابى يقصر الرؤى الصادقة على الأنبياء ، ولم نلمس عنده قولا يدل على أن للأحلام علاقة بالمستقبل خارج هذه الدائرة ، كما نلمس ذلك فى بعض المذاهب السيكلوجية الحديثة المعارضة لفرويد .

بقى كما قلنا أن نتعرض للجانب الميتافيزيقى من الأحلام ، ويتلخص فيما يلى :

لما كانت القوة المتخيلة تحاكى القوة الحسية كما بينا ، فهى تحاكى القوة الناطقة كذلك ؛ ولما كانت القوة الناطقة تستطيع أن تتصل بالعقل الفعال فيفيض اليها ما أفاضه الله اليه ، فان الشىء الذى ينال القوة الناطقة من العقل الفعال هو الشىء الذى منزلته الضياء من البصر قد يفيض منه على القوة المتخيلة ،

مكتبتنا العربية

فهنا يفعل العقل الفعال فى القوة المتخيلة ما يفعل فى القوة الناطقة من إعطاء الجزئيات والمعقولات فى صور الرؤيا الصادقة ومحاكاة الأشياء الإلهية .

هكذا فسر الفارابي الأحلام والرؤى الصادقة ؛ ولما كانت الأخيرة شعبة من شعب النبوة فقد وضح لنا الوحي والإلهام أثناء النوم .

وبقى أن ننظر فى النبوة أثناء اليقظة أو كيف يكون الوحي ورؤية الملك :

يقول المعلم الثانى : إن المتخيلة إذا كانت فى إنسان قوية جدا بحيث تصل هذه القوة الى درجة لا تستنفد معها كل المحسوسات الواردة عليها من الخارج كل أوقاتها ولا تستخدمها جميعها ، كذلك للقوة الناطقة التى تقوم هى بخدمتها بل بجانب اشتغالها إزاء هاتين القوتين الحسية والناطقية ، يبقى لها جانب كبير تفعل فيه هى الأخرى فعلها الذى يخصها . ومعنى هذا أنه يحدث للقوة المتخيلة القوية الكاملة فى فترات اليقظة ما يحدث لها أثناء النوم من تحللها وتحررها عن تلك الأعمال التى تقوم بها نحو القوة الحاسة والقوة الناطقة ؛ وهذا يشابه علم النفس الحديث الذى يقرر بصدد أحلام اليقظة أنها عبارة عن شرود الانسان عن الانتباه الى ما يحيط به وذهابه مع نفسه يذهب فى عالم من الخيال ، فيفقد صلته بالعالم الخارجى ويعيش بينه وبين نفسه ، فيصبح كالنائم وما هو كذلك ، بل هى حالة بين بين ، ويتجه كل شخص فى أوهامه حسب ميوله ورغباته وظروفه ، فكل يغنى بليلاه ، كما يقول المثل العامي . ويصف علم النفس الحديث هذه الحالة بأنها حالة طبيعية ، اللهم إلا إذا زاد شرود الفكر الى درجة تؤدى الى الأرق وتعطيل الأعمال .

وعلى كل حال فان القوة المتخيلة إذا تحررت من القوة الحاسة والقوة الناطقة فانها تتصل بالعقل الفعال وتنعكس عليها منه صورة فى غاية الجمال والكمال . ومعنى هذا أن الصور التى يعطيها العقل الفعال تتخيلها القوة المتخيلة حسب ما تحاكيها من المرئيات المحسوسة التى تحتفظ بها . وهنا تعود تلك الصور المتخيلة الى الارتسام فى القوة الحاسة ، وعندما ترتسم فى القوة الحاسة المشتركة تتأثر بها القوة الباصرة فترتسم تلك الصور فيها كذلك ، وهذه الصور

مكتبتنا العربية

المرتسمة فى القوة الباصرة تنعكس فى الهـواء المضىء الموصـل للبصر المنجاز بشعاع البصر وترتسم فيـه كذلك ، على أن هـذه الصور المرتسمة فى الهواء الموصل للبصر تنعكس هى بدورها الى القوة الباصرة الى العين ، ثم تعكسها الى الحاسة المشتركة ، ومنها تعود أخيرا الى القوة المتخيلة ، لأن كل هذه القوى متصل بعضها ببعض ؛ فـكأن هناك دوراً لهذا الانعكاس ، وكانت مهمة هذا الدور هى إظهار ما يعطيه العقل الفعال لتلك القوة المتخيلة من صور حتى تصبح مرئية لدى ذلك الانسان الذى له القوة المتخيلة القوية الـكاملة جدا .

على أن مقدرة هذه القوة المتخيلة القوية الـكاملة لا تنتهى عند هذا الحد ، بل فى استطاعتها كذلك أن تتقبل من العقـل الفعال الجزئيات الحاضرة والمستقبلة ، فتكون لهـا بذلك النبوة بالأشياء الإلهية . والى هـذا أشار الفارابى بقوله : « ولا يمتنع أن يكون الانسان إذا بلغت قـوته المتخيلة نهاية الـكمال ، فيقبل فى يقظته عن العقـل الفعال الجزئيات الحـاضرة والمستقبلة أو محاكياتها من المحسوسات ، ويقبل محاكيات المعقولات المفارقة ، وسائر الموجودات الشريفة ويراها ، فيكون له بمـا قبله من المعقولات نبوة بالأشياء الإلهية » .

فعندما يصل الانسان الى هذه الدرجة من القوة فى قوته المخيلة وهى أكملها وأتمها ، فقد وصل الى أكمل وأتم المراتب التى يتمنى الوصول اليها ؛ والأنبياء وحدهم هم الذين لهم مثل هـذه القوة فى مخيلتهم ، وهم الذين وصلوا الى هـذه المرتبة العليا .

هـذا هو تفسير المعلم الثانى للوحى والإلهام من الناحية السيكلوجية ؛ وواضـح أنه يتعارض مع كثير من النصوص الدينية الثابتة ؛ فقد ورد أن جبريل عليـه السلام كان ينزل على النبى فى صورة بعض الأعراب ، وأنه كانت تسمع له صلصلة كصلصلة الجرس ، الى غـير ذلك من الآثار المتصلة بالوحى والالهام وكيفية نزوله .

والظاهر أن الفارابى لم يكن الرجل الذى غابت عن ذهنه كل هذه الآثار ، ولكنه لم يكن ليغيب عن ذهنه كذلك أنه فى ذلك الوقت لم يكن أمام من آمن

مكتبتنا العربية

بكل ما ورد ونقل ، ولكن أمام من أنكر النبوة وهاجمها بعنف ، فهو والحالة هذه مضطر الى تقوية خط دفاعه ولو دعا ذلك الى بذل شيء من التضحية .

وثمة مسألة أخرى لا أحب أن أختم مقالى قبل أن أجلوها ؛ فلقد قال دى بور فى كتابه تاريخ الفلسفة فى الاسلام ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده ص ١٥٣ ، ١٥٤ ما يأتى : « والفارابى يذهب إلى أن حكمة الفلاسفه وكذلك حكمة الأنبياء تفيض عن العقل الفعال ، وهو يذكر النبوة بين حين وآخر ويصورها بأنها أعلى مرتبة يبلغها الانسان فى العلم والعمل ، ولكن هذا ليس رأيه الحقيقى ، أو على الأقل ليس هو النتيجة المنطقيه التى تلزم عن فلسفته النظرية ، فقول هذه الفلسفة إن كل أمور النبوة فى الرؤيا والكشف والوحى ونحوها تتصل بالخيال فهى فى المرتبة الوسطى بين الاحساس وبين المعرفة العقلية الخالصة ، على أنه إذا كان الفارابى فى آرائه فى الاخلاق والسياسة ، يجعل للدين شأنا كبيرا فى التهذيب ، فهو يعده من حيث قيمته الأخيرة أو فى مرتبة من المعرفة العقلية الخالصة » .

هذا هو كلام دى بور ، ولكننا نرى أن الفارابى لم يلحظ هذه التفرقة . ويتفق معنا فى هذا الرأى الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور فى رسالته الفرنسية للدكتوراه المعنونة « مكانة الفارابى فى المدرسه الفلسفية الاسلامية » فقد رأى أن المعرفة عند الفارابى تترتب قيمتها على منبعها لا على وسيلتها ؛ فالفيلسوف والنبى يأخذان معرفتها من العقل الفعال ، زد على ذلك أن هناك قوة قدسية فوق قوة المخيلة يتصل بها النبى ، وهى على حد تعبير الفارابى فى كتابه فصوص الحكم « قوة يذعن لها بالغريزة عالم الخلق الأكبر كما يذعن لروحك عالم الخلق الأصغر ، فيأتى النبى بمعجزات خارقة للعادات » ؟

الاعشى

لفضيلة الأستاذ رياض هلال
المدرس بمعهد القاهرة

وهذا شاعر آخر من عبيد الشعر ، أبو بصير ميمون بن قيس ، من الشعراء المتكسبين بالشعر ، الفائلين فى أكثر ضروبه ، ثقف الشعر من طريق الرواية على خاله المسيب بن علس ، حتى إذا حصف عقله ، وارتاض لسانه ، انتجع أطراف البلاد ، وغشى أبواب الملوك والأمراء ، يمدحهم ويستجديهم ، بل لقد مدح الصعاليك ، وانتجع ملوك الفرس ، وصرح بذلك فقال :

وطوفت للمال آفاقه عمان وحمص وأور يشكم
أتيت النجاشى فى أرضه وأرض النبيط وأرض العجم

وليس من شك أن أخذه الشعر عن خاله ، وتكسبه به ، بعض ما أعان على نضج ملكته الفنية فى نفسه ، كما أن لاشتراكه فى المواسم الأدبية والأسواق دخلا فى ذلك أيضا ، فقد صارت هذه المواسم والأسواق مجالا للتمحيص والنقد ، وأداة قوية للاصلاح العام ، وطبيعى أن يكون الأعشى وهو شاعر أكثر شىء مسايرة لهذه النهضة ، بما سير فى الآفاق من شعر ، وبما نهض به من التجويد والصنع .

أما شعره فقد كان حسن الرواق ، طلى الأسلوب ، مجود الديباجة ، مثقف القصيد ، يجمع الجودة الى الطول ، وكان لشعره جلبة فى السمع ، وروعة فى النفس ، وأثر فى الناس ، فسمى لذلك صناجة العرب ، وذلك أثر التجويد والتحبير ، ولقد رفع بشعره ووضع ، وموقفه مع الحلق ، وعلقمة بن علاثة مشهور معروف ، وقصيدته التى يمدح بها قيس بن معد يكرب الكندى أحد أمراء اليمن ، آية تجويده وتحبيره ، وهى التى يقول فى مطلعها :

مكتبتنا العربية

رحلت سميـة غـدوة أجمالها غضبى عليك فما تقول بدالها (١)

إلى أن قال :

ولقد نزلت بخير من وطىء الحصى قيس فأثبت نعلها وقبالها (٢)

لم يكن الأعشى من العشاق المتيمين ، فتراه يتغنى فى مطلع قصائده بالمرأة ، وهو هنا يتساءل عن سبب ارتحال سمية عنه ، ثم جعل ذلك لسفه فيها ، لأنها لم تعلم أنه أقصر عن هوى النساء ، وأعقب وصلهن بهجران ، ثم انتقل إلى وصف ممدوحه ، بأنه يعم قومه بحلمه وصفحه ، وبما يغدق عليهم من سجاله وفيضه ، ومن اضطلاعه بما يقدمهم ، وغنائه لهم بهذه الكفايات ، يذود عنهم الأعداء ، ويهين لضعفائهم كرائم أمواله ، ويداوى ما تطيش به حلومهم بأناته ، وبأسه ، ويصلح بصالح سميه عقولهم وفساد أنفسهم ... الى آخر هذه المدائح . والقصيدة من فاخر الشعر ومهذبه ، وهى ثمرة الروية الصائمة ، والأناة البارعة ، وحسبك أن الشاعر قد اعترف بذلك فى قوله .

وغريبة تأتى الملوك حكيمة قد قمتها ليقال من ذا قالها

ولا ننس أن ننبه إلى أن الأعشى أول من وازن فى الشعر القديم بين ممدوحه وبين النهر فى قوله :

ما النيل أصبح زاخراً فى مده جادت له ريح الصبا فجرى لها
زبدا يمصر وكان يسقى أهلها رغدا تفجره النبيط خلالها
يوما بأجود نائلا منه إذا نفس البخيل تجهمت سؤالها

ويشترك معه النابغة فى موازنته بين النعمان والفرات فى قوله :

فما الفرات إذا هب الرياح له ترمى أواذيه العبرين بالزبد (٣)

---

[١] رحل البعير شد عليه أداته . سميه محبوبته أصلها اسم زيدت التاء . الغدوة بعد البكرة

[٢] النعل ما غلظ من الأرض . والقبل المحجة الواضحة أى ملك أهلها .

[٣] الأواذى جمع آذى الموج الشديد . العبر الناحية .

مكتبتنا العربية

يظل من خوفه الملاح معتصما بالخيزرانة بعد الأين والنجد (١)
يوماً بأجود منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد

وحسبك أن أبا عبيدة كان يقول « لم تقل جاهلية أحسن من لامية الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

وهى فى هجاء يزيدَ بن مُفرّغ الشيبانى .

ولن ندع الحديث عن الأعشى حتى نذكر أبياته القوية فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أراد أن يلقاه ولكنه لقيه أبوجهل أو أبو سفيان فصرفه عن ذلك ، وكان أعد شعرا قال فيه يحدث عن ناقته :

فآليت لا أرثى لها من كلالة ولا من حفى حتى تزور محمدا
متى ما تناخى عند باب ابن هاشم تراحى وتلقى من فواضله ندى
نبى يرى مالا يرون وذكره أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا
له صدقات ما تغب ونائل وليس عطاء اليوم يمنعه غدا
أجدك لم تسمع وصاة محمد نبى الأله حين أوصى وأشهدا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على ألا تكون كمثله فترصد للأمر الذى كان أرصدا

وهى من عيون قصائده المحبرات التى يتمثل فيها تجويده وتخيره . ولقد كان رفيقا بناقته شفيقا عليها حين قال لها :

متى ما تناخى عند باب ابن هاشم تراحى وتلقى من فواضله ندى

على حين يقول لها الشماخ بن ضرار :

إذا بلغتنى وحملت رحلى عرابة فاشرقى بدم الوتين

وشتان ما الجزاءان !

---

(١) الخيزرانة سكان السفينة . الأين الاعياء . النجد العرق .

مكتبتنا العربية

الاسلام والديمقراطية

لفضيلة الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى
المدرس بالأزهر

رسفت الإنسانية فى أغلال ظالمة من الاستعباد خلال الحضارات القديمة التى غمرت موجتها العاتية الحياة البشرية ، قبل أن تسطع شمس الإسلام المشرقة ، وينبثق نوره ؛ وتشابهت جميع الحضارات التى استظلت بها الانسانية فى ذلك العهد السحيق ، فى أفكارها ومبادئها وغاياتها ، فقامت جميعا على أسس الطغيان والديكتاتورية والروح المادية البعيدة عن السمو الإنسانى المنشود ، وكانت غايتها المشتركة مجد الأشخاص لامجد الشعوب ، ورفاهية فرد وإن شقيت به أمة ، وكان كل ما تطمح اليه ، وتفكر فيه استعباد الناس وتسخيرهم فى سبيل تحقيق ما يصبو إليه الحاكمون من عظمة وكبرياء ، وما ينشدونه من روعة المجد ومظاهر السلطان ، وجحدت جميع هذه الحضارات حقوق الأفراد وحرياتهم . وناوأت حياة الديمقراطية وحريات الشعوب ، وتنكرت لكل ماتقدسه الانسانية المهذبة من عدالة وإخاء ومساواة ؛ ثم خلعت على هذا الاستبداد الجائر صورا مزيفة من القداسة والحق الالهى المزعوم وأن الحاكم يتلقى الحكم هبة من السماء ، ونفحة من العناية الإلهية ، وليس للشعوب حق لديه ، ولاشخصية فى رأيه ، وما هم إلا عبيد مسخرون ؛ فسكن لهذا الطغيان الثائرون ، وآمن به الحائرون ، وصار عقيدة مع العقيدة وسورة من كتاب البشرية المضللة اليائسة .

وبزغ النور الإلهى فى أفق الحياة البشرية بين هذه الظلمات القاتمة فترات قصيرة ، ليبدد ظلام الاستعباد السياسى والرق الفكرى والطغيان الاجتماعى بيد أنه لم ينفذ إلى أعماقها ، ولم يتغلغل فى طواياها ؛ واجتمعت شياطين الضلالة وأعداء الإنسانية على أن يحولوا بينه وبين قلوب الناس وعقولهم ، فلم يَرْنُ اليه بصر ، ولم يخفق به فؤاد ، ولم ترفع له الشعوب رأسا .

مكتبتنا العربية

وعلى حين غفلة نزل الوحي إلى الأرض من جديد ، يبلغ الرسالة ، وينفث فى روع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه روح القوة والبطولة ، ويدعوهم إلى التضحية والجهاد ، لتحرير الانسانية من أغلالها ، والسمو بها إلى حياة الحرية والديمقراطية والسلام ؛ فأخذ محمد وأصحابه يدعون للدين الجديد ، ويبشرون الناس بحياة بشرية أخرى ، ويضعون أسس الحياة الانسانية الجديدة .

دعا محمد صلوات الله عليه الى وحدة الانسانية : أممها وجماعاتها ، والى محو جميع الفروق الطائفية والعنصرية الظالمة التى فرقت بين الانسان والانسان وبين الجماعة والجماعة وبين الأمة والأمة ، وإلى المساواة التامة بين الأفراد والجماعات ، وأهدر جميع الموازين التى ألف الناس تقدير قيم الأشخاص على أساسها من الحسب والجاه والمال إلا ميزانا واحدا هو ميزان الكفاءة الشخصية والعمل الصالح والخلق الكريم « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » ؛ ويقول الرسول الكريم « أيها الناس إنما المؤمنون إخوة ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم » ؛ وأنكر عليه زعماء قريش هذا المبدأ الكريم ، قالوا كيف نجلس إليك يا محمد وأنت تجلس الى مثل بلال الحبشى وسلمان الفارسى وصهيب الرومي وعمار وسواهم من العبيد وعامة الناس ؟ اطردهم عنك ونحن نحضر مجلسك ونسمع دعوتك . فأبى رسول الله صلوات الله عليه . فقالوا : فاجعل لنا يوما ولهم يوما ، فكاد أن يجيب رغبتهم فنزل عليه الوحي من السماء يرتل فى أذنه الكريمة هذه الآيات الكريمة : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ، فتطردهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين . وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة »

كفل الاسلام حريات الأفراد والجماعات ، وناوأ الاستعباد البشرى فى جميع

مكتبتنا العربية

صوره وشتى مظاهره ، حتى قال عمر فيما بعد لأحد ولاته وقد اعتدى على رجل من الرعية : « كيف تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ، فحرر الاسلام العبيد المسترقين إلا من كان مأسورا فى حرب شنها أعداء الاسلام ليطفئوا بها نور الله ، ووضع الحدود لمعاملة هؤلاء الأرقاء ودعا الى تحريرهم من رق العبودية ؛ كما حرر المرأة من عبودية الرجل ، وحرر المجتمع من ديكتاتورية الزعماء والطغاة ، وحرر الشعب من جور الرأسماليين المستبدين ، فأحل البيع وحرم الربا ، ودعا الى أسمى المعاملات وأنبلها .

وكانت أول كلمة فى دين الاسلام هى الدعوة الى وحدة العقيدة وألا يشرك الناس بالله شيئا ، وبذلك رفع كرامة الانسانية من أن تمتهن بالسجود لغير الخالق العظيم ، ورفع كرامة الناس من أن يذلوا للطغيان السياسى الذى يسبغ عليه أصحابه لونا زاهيا من القداسة وتأييد العناية الالهية ، « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ، قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء »

ودعا الى السلام المشترك « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » .

ووضع أساس الديمقراطية السامية ، ومبدأ الشورى الكريم ، « وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله » ، وأساس الحكومة العادلة « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » ، « إن الله يرضى لكم ثلاثا : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » . وقرر مبدأ النصيحة لأولى الأمر « الدين النصيحة : لله ولرسوله ولأولى الأمر » ؛ وألا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

وأخذ رسول الله صلوات الله عليه ينظم فى تؤدة وتدرج حياة الفرد والأسرة ، وشئون المجتمع والأمة ، على أسمى وجه تنشده الانسانية ، ويصبو اليه المصلحون ؛ ودعا الناس الى غاية مشتركة هي العمل على سعادة الانسانية ورفاهيتها وتقدمها ، والتمكين لحياة التعاون والديمقراطية بين الناس والجماعات

مكتبتنا العربية

والأمم ؛ وسار على نهجه الكريم خلفاؤه الراشدون ، فكانوا المثل الأعلى للملوك الديمقراطيين والحكام العادلين .

وبذلك استعاد الفرد كرامته ، والمجتمع سعادته ، والشعب حريته ، والانسانية طمأنينتها ، وعاش الجميع بنعمة الله إخوانا .

أليست الديمقراطية هي المساواة التامة بين الناس ، ونشر العدالة الاجتماعية بين الأفراد والطبقات ، وكفالة حريات الناس جميعا ، واشتراك الفرد في شئون المجتمع والأمة يديرها ويسوسها ويسير بها لمصلحة الجميع حتى يتعاون الحاكمون والمحكومون جميعا في سبيل الخير العام والمصلحة المشتركة ؟

ثم أو لم يقرر الاسلام هذه المبادىء جميعا قبل أن تقررها الحضارات الأوربية الحديثة بأربعة عشر قرنا من الزمان ؟

إنها لعقيدة جديدة ، وثورة إنسانية عامة ، ودعوة لتمكين حياة الديمقراطية في الأرض بين الناس ، وما أروعها من عقيدة ، وما أعظمها من ثورة على الطغيان والاستعباد ، وما أجلها من دعوى رفعت رأس البشرية إلى السماء .

وبعد جهاد رائع حافل بآيات البطولة والتضحية كتب الظفر والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، فألقى حماة الوثنية والطغيان في جزيرة العرب سلاحهم بين يدي محمد صلوات الله عليه . كما ألقى حماتها في فارس والشام ومصر السلاح في عهد أبي بكر والفاروق عمر بن الخطاب ، وذهبت العقيدة الاسلامية ، وحياة الديمقراطية البشرية الجديدة ، في أرجاء المشرق والمغرب ، بشيرا بخير العالم وسعادة الشعوب ، ورفاهية الناس والجماعات .

لقد أدى الشرق رسالته . ثم استعاد التاريخ دورته . فاذا الجهاد هو الجهاد والكفاح هو الكفاح . ولكن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، والمجد والسلام والرفاهية للبشرية أولا وأخيرا ؟

الخطابة فى الاندلس

المنذر بن سعيد البلوطى

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصى

المدرس بمعهد الزقازيق

كان البلوطى ذا صرامة وقوة وثبات فى الحق ، لا يخشى فى الله لومة لائم ، ويصدع بكلمة الصدق غير جبان ولا عاجز ، ولا مراقب لأحد من خلق الله مهما عظم ، وكان من ذوى الصلابة فى أحكامه ، والمهابة فى أقضيته ، وقوة القلب فى نصرة الحق ، وصدق الجهاد فى دفع الظلم ، لا يهاب فى ذلك الأمير الأعظم فمن دونه . ومن مشهور ما أثر عنه فى هـذا المقام أن أمير المؤمنين الخليفة الناصر لدين الله أراد شراء دار بقرطبة لحظية من نسائه كان يحبها ويدللها ، فوقع اختياره على دار لبعض الأيتام ، هم أولاد زكريا أخى نجـدة ، وكانوا فى حجر القاضى ورعايته ، فأرسـل الخليفة إليه من قيمتها بقدر ما طابت به نفسه ، وكلف أناسا بمفاوضة وصى الأيتام فى بيع الدار ، فأجاب ذلك الوصى بأنه لا يمكن بيع الدار إلا باذن القاضى ، فبعث الخليفة إلى البلوطى القاضى يسأله إنفاذ ذلك البيع ، فقال البلوطى لرسـول الخليفة : البيع على الأيتام لا يصح إلا لوجوه : منها الحاجة ، ومنها الوهى الشديد ، ومنها الغبطة (١) ؛ فأما الحاجة فـلا حاجة بهـؤلاء الأيتام إلى البيع ، وأما الوهى فليس فيها ، وأما الغبطة فهذا مكانها ، فان أعطاهم أمـير المؤمنين فيها ما تستبين به الغبطة أمرت وصيهم بالبيع ، وإلا فلا ! . فنقل الرسول هـذا الجواب بنصه وفصه إلى الخليفة لم يخرم منه حرفا ، فأظهر الخليفة الزهد فى شراء الدار طمعا فى أن

---

(١) الوهى الضعف والتهدم ، والغبطة حسن الحال والمسرة ، وفى الحديث : اللهم غبطا لاهبطا ، أى نسألك الغبطة أو منزلة نغبط عليها [القاموس] .

مكتبتنا العربية

تهون قيمتها فى نظر القاضى فيخف ثمنها ؛ وخاف القاضى البلوطى أن تنبعث من الخليفة عزيمة تلحق الأولاد سورتها ، فأمر الوصى بنقض الدار وبيع أنقاضها ، ففعل وباع الأنقاض بأكثر مما قومت به للسلطان وهى قائمة ، فلما علم الخليفة بذلك عز عليه ، واتهم الوصى بأنه صاحب هذه المكيدة ، فقال الوصى : إن القاضى البلوطى هو الذى أمرنى بذلك ، فبعث الخليفة إلى القاضى يقول له : أنت أمر بنقض دار أخى نجدة ؟ . فأجاب القاضى : نعم فقال له الخليفة : وما دعاك إلى ذلك ؟ . قال البلوطى : أخذت فيها بقول الله تبارك وتعالى : « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر ، فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » فقومك لم يقدرها إلا بكذا ، وبذلك تعلق وهمك ؛ فقد قبض فى أنقاضها أكثر من ذلك ، وبقيت الدار (١) والحمام فضلا ، ونظرا الله للايتام ! . فصبر الخليفة على ذلك وقال : نحن أول من انقاد إلى الحق ، فجزاك الله عنا وعن أمانتك خيرا ! .

ولعل البعض حينما يقرأ هذه الحادثة يظن أن الخليفة الناصر قد وجد على قاضيه البلوطى ، أو أضمر له السوء ، أو تربص به الدوائر ، كلا ! إن الواقع غير ذلك ، فقد جل البلوطى عند الناصر وعظم فى نظره ، وإن يكن ساءته قسوته فقد أعجبته فى الحق صراحته وصرامته ، ولعله يمر بك بعد قليل مصداق ما نقول .

ولقد كان الخليفة الناصر كلفا بالعمارة والزخرفة ، شأن الكثير من ملوك الاسلام حينما فتح الله عليهم مافتح من مشارق الأرض ومغاربها ، وأعطاهم ما أعطاهم من زينة الدنيا وزخرفها ، فبنى « الزهراء » ، واستفرغ الوسع والجهد فى تنجيدها ، وإتقان قصورها ، وزخرفة مصانعها ، حتى شغله ذلك عن حضور صلاة الجمعة بالمسجد الجامع حينا من الزمان ، ثم رجع الى صلاة الجمعة بعد ذلك ، فأراد البلوطى وهو إمام الخليفة وخطيبه أن يعظه موعظة بالغة زاجرة ، فبدأ خطبته بقول الحق تبارك وتعالى : « أتبنون بكل

---

[١] يعنى أرض الدار الفضاء .

مكتبتنا العربية

ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ؛ أمدكم بأموال وبنين ، وجنات وعيون ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » ثم وصل ذلك بكلام فصل ، ذم به المشيد والاستغراق فى زخرفته والسرف فى الانفاق عليه فجرى فى ذلك طلقا ، وعلم الخليفة أنه المقصود فبكى وندم ؛ واستعاذ بالله من سخطه ، ولكنه تأثر من البلوطى ، للفظه القاسى الذى قرَعه به ، فشكا ذلك بعد الصلاة إلى ولده الحكم أمير الدولة وولى العهد فقال : والله لقد تعمدنى منذر بخطبته ، وأسرف فى ترويعى ! ثم أقسم الناصر وهو فى ثورة الغضب وحمى الغيظ ألا يصلى خلفه الجمعة أبدا . فقال له الحكم : وما الذى يمنعك عن عزل منذر بن سعيد والاستبدال به ؟ فأفاق الناصر من غفلته ، ورجع إلى صوابه ، وتذكر ما للبلوطى من حرمة ومكانة ، وورع وإخلاص ، فزجر ابنه الحكم قائلا : أمثل منذر بن سعيد فى فضله وورعه ، وعلمه وحلمه ؟ لا أم لك ! يعزل فى إرضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد ؟ ! (يعنى نفسه) هذا ما لا يكون ، وإنى لأستحى من الله ألا أجعل بينى وبينه شفيعا فى صلاة الجمعة مثل منذر بن سعيد ؛ ولكنه وقذ نفسى(١) وكاد يذهبها ؛ والله لوددت أن أجد سبيلا إلى كفارة يمينى بملكى ! . بل يصلى بالناس حياته وحياتنا فما أظننا نعتاض منه أبدا !

وهكذا تكون جرأة العلماء فى الدعوة إلى الحق ، ومجاهدة الباطل ، وتكون تقوى الملوك وحسن تصرفهم :

إن الأكابر يحكمون على الورى وعلى الأكابر تحكم العلماء !

بل ما أجل الناصر والبلوطى معا حينما يقفان الموقف التالى :

كان الناصر لدين الله كما سبق مسرفا فى البناء ، فجعل أجدّ قصوره

(١) ألمها وأوجعها ، والوقذ هو الضرب بالعصا أو الحجر .

مكتبتنا العربية

مقرمدا (١) ، مصفحا بالذهب والفضة ، وزخرف السقف بالصفراء الفاقعة والبيضاء الناصعة ، وأنفق فى ذلك مالا جسيما .

فلما تم البناء أقام فيه « حفلة افتتاح » دعا اليها الوزراء والكبراء ، وجعل يفتخر بينهم فيقول : هل رأيتم قبلى أوسمعتم من فعل مثل فعلى هذا أوقدر عليه ؟! فقالوا : لا والله يا أمير المؤمنين ! فأبهجه قولهم وسره ، وبينما هم كذلك إذ دخل منذر بن سعيد البلوطى واجما منكسا رأسه ، فسأله الخليفة مثل ما سأل غيره عن اقتداره وإبداعه ، فجرت دموع القاضى البلوطى تتحدر بغزارة على لحيته ثم قال : والله يا أمير المؤمنين ما ظننتُ أن الشيطان — أخزاه الله — يبلغ بك هذا المبلغ ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين ، مع ما آتاك الله ، وفضلك على العالمين ، حتى أنزلك منازل الكافرين !... فاقشعر الناصر من قوله وصرخ به : انظر ما تقول ... كيف أنزلنى منازلهم ! قال البلوطى : نعم ، أليس الله تبارك وتعالى يقول : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون » ! فوجم الخليفة ونكس رأسه ، وجرت دموعه على لحيته ، خشوعا لله ، ثم قال : جزاك الله تعالى يا قاضى خيرا عنا وعن المسلمين والدين ، وكثر فى الناس أمثالك ، فالذى قلت هو الحق ! ثم قام من مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى ، وأمر بنقض سقف القبة ، وأعاد قرمدها ترابا ! . .

ولم يقتصر البلوطى على الخطابة والقضاء ، بل قال الشعر ، وقد تقدم قول ياقوت فى معجمه بأن له أشعارا متفرقة مطبوعة ، ويقول صاحب « المطمح » عنه : « وكان خطيبا بليغا ، وشاعرا محسنا » ... وأغلب أشعاره التى قرأتها من باب وظيفته التى كان ينهض بها وهي الخطابة والوعظ ، فنراه مثلا يحث على التقوى والزهد فى أبيات له فيقول مخاطبا اللاهي المغرور :

---

(١) القرمد ما طلى به كالزعفران والجص ، وبناء مقرمد مبنى بالآجر والحجارة ، أو مشرف عال (القاموس) .

كم تصابى ، وقد علاك المشيب وتعامى عمداً وأنت اللبيب ؟
كيف تلهو ، وقد أتاك نذير أن يوم الحمام منك قريب ؟
ياسفيها قد حان منه رحيل بعد ذاك الرحيل يوم عصيب
إن للموت سكرة ، فارتقبها لايداويك ـ إن أتتك ـ طبيب !
بأمور المعاد أنت عليم فاعملن جاهداً لها يا رقيب
وتذكر يوما تحاسب فيه إن من يذكر فسوف ينيب !
ليس من ساعة من الدهر إلا للمنايا عليك فيها رقيب

والمطالع لهذه الأبيات يرى أنها وليدة صناعة وتكلف ، وإعمال وإرهاق ، ولعل مركز القضاء والامامة والخطابة والتدريس الذى كان يحتله البلوطى قد ألزمه أن يتحفظ فى شعره ، فلا يقول إلا فى أغراض تناسب وظيفته الدينية ؛ من وعظ وزجر عن الموبقات وتحبيب فى الطاعات ولنقرأ هذه الأبيات لنتأكد عندنا هذه الملاحظة ؛ فاستمع اليه حين يقول فى الزهد :

ثلاث وستون قد حزتها فماذا تؤمل ، أو تنتظر ؟ !
وحل عليك نذير المشيب فما ترعوى ، بل وما تزدجر !
تمر لياليك مرا حثيثا وأنت على ما أرى مستمر !
فلو كنت تعقل ما ينقضى من العمر ما اعتضت خيرا بشر
فمالك لا تستعد إذن لدار المقام ، ودار المقر ؟
أترغب عن مفاجأة المنو ن ، وتعلم أن ليس منها وزر ؟
فإما إلى جنة أزلفت وإما إلى سقر تستمر ؟ !

ليت شعرى ! أين خفة الأندلسيين ورقة خيالهم ، وجمال نظرتهم وعذوبة أشعارهم وسلامة ألفاظهم ؟ أين كل هذا فى تلك الأبيات التى تذكر بخشبة المنبر ، وتنسينا مهرجان الشاعر ؟ ! . .

أسرار التربية العالية

فى أطوار التشريع الاسلامى

لفضيلة الأستاذ عبد الغنى الراجحى

لشىء ما كان الاسلام الحنيف حريصا على التوحيد . لا أقصد توحيد الله فحسب ، ولكن التوحيد أيضا بين الناس فى مظاهر العبادة ومراسيم الطاعة ، إزالة للحواجز، وإشعارا بالتساوى ، وتذكيرا للناس أنهم مهما عظمت الفوارق بينهم لآدم ، وآدم من تراب .

فاذ قد فرضت الصلاة ليلة الإسراء سنة خمس قبل الهجرة أو أقل أو أكثر على ما قيل وقيل ، لم يشأ جلت مشيئته أن يترك الأمة الإسلامية تؤدى صلاتها مبعثرة فى جهات متفرقة حسبما يقضى على كل إنسان هواه الشخصى فى شأن القبلة التى يقبل عليها فى صلاته . فى غلب الجزيرة العربية ، وفى سرة الكرة الأرضية وفى أم القرى مكة المكرمة أول بيت وضع للناس مباركا وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا ، بناه بأمر ربه شيخ العرب ابراهيم الخليل بمعاونة ولده اسماعيل، وكان شعارهما حين البناء « ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم (١) » ظل المسلمون وهم بمكة المكرمة يستقبلون فى صلاتهم هذا البيت الحرام، ومهما روى من استقبالهم بيت المقدس وهم بمكة فان ذلك شىء إن صح قد كان له ثانيا وبالعرض، وللبيت الحرام أولا وبالذات، على معنى أن يستقبلوه بحيث لا يستدبرونه .

خرج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة مضطهدا فى دينه واختار مدينة يثرب مهجرا لرسالته ، وفرح يهودها به فرحا شديدا حتى كان أول من بشر بوصوله يوم الهجرة رجل يهودى، فبلغ من حسن سياسته أن يقابلهم بمثل ما استقبلوه

---

(١) راجع سورة البقرة الاية ١٢٧ ، ١٢٨

(٢) راجع سورة آل عمران الاية ٩٦ ، ٩٧

مكتبتنا العربية

به فاستمالهم اليه ، وتألفهم على دعوته ، وكان من مظاهر ذلك أن استقبل فى صلاته قبلتهم بيت المقدس . وسواء كان هذا الاستقبال أمرا واجبا أم مخيرا فيه ، باجتهاد منه أم بوحى من ربه ، فانه قد صار أمرا واقعا . واستأثر المسجد الأقصى بصدور المسلمين تستقبله فى اليوم والليلة خمس جماعات .

لم يكن فرح اليهود برسول الله إخلاصا لدينه أو محبة فى دعوته ، وإنما كان لأطماع مادية حقيرة ، وأغراض طائفية خبيثة ، ونزوات شيطانية بعيدة المدى استحال عليه فيما بعد أن يجاريهم فيها ، فما هو إلا أن دبت عقارب الحسد والبغض له فى صدورهم ، فذهبوا يزينون له الخروج من المدينة والذهاب الى بيت المقدس ، يمدونه بالايمان به إن أقام فيه ، يرون أن إقامته فيه جزء من النبوة لا تتم إلا به .

بدت البغضاء من أفواه اليهود ، وما تخفى صدورهم أكبر ، ولم يخف على النبى ذلك منهم ، فأولع بمخالفتهم ، وتمنى أن يؤذن له فى استقبال الكعبة التى ما زال فى قلبه شوق وحنين فطرى اليها .

وعلى رأس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا من استقباله بيت المقدس ، وبينما كان يجيل بصره فى الآفاق متشوقا لوحى السماء إذا بجبريل يتنزل عليه بقول الله(١) «قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ، وما الله بغافل عما يعملون » . وفى ذلك يقول البراء بن عازب « صليت مع النبى الى بيت المقدس ستة عشر شهرا حتى نزلت الآية التى فى البقرة ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » فنزلت بعد ما صلى النبى ، فانطلق رجل من القوم فمر بناس وهم يصلون فحدثهم فولوا وجوههم قبل البيت » .

كان صرف القبلة من القدس الى مكة فرصة سنحت لأعداء الاسلام والمتألبين عليه ، كل يدلى فيها بما توحيه اليه طبيعة تفكيره من معانى الكذب

[١] البقرة الآية ١٤٤

مكتبتنا العربية

والطعن والتشهير ؛ فالمشركون بمكة يقولون : بدا محمد يثوب الى رشده ويعود الى ديانتنا وعقائدنا . والمنافقون بالمدينة يقولون : ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها إلا العبث والتلاعب باسم الدين الكاذب ، ولو كانوا يصدرون عن وحى حق فيما يأتون ويذرون لما تخبطوا هذا التخبط . واليهود يقولون : عاد محمد الى طريقة آبائه واشتاق الى دينهم ولو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أنه النبى وما دامت الجهات كلها متساوية فى صحة اتخاذها قبلة ، فالتحول من القدس الى الكعبة عبث ، وكيف يستقيم قول محمد : إن الله هو الذى يحوله ويبدل له أمرا بآخر مع مافى ذلك من لزوم الجهل والبداء ؟ (١) .

لم يمض غير قليل حتى أنزل الله على رسوله آيات أخرست الألسن الكاذبة وألجمت الأفواه الثرثارة ، وقذفت بهذه الشبه والشكوك من حالق ، وبينت أنه مادامت الجهات كلها ملكا لله فله أن يتخذ مايشاء منها قبلة ، وله أن يجعل القبلة فى بعضها وقتا ما ، ثم يجعلها فى البعض الآخر وقتا آخر لعلمه فى سابق الأزل أن الأصلح فى ذلك ، فلا يلزم جهل ولا عبث ولا بداء ، مع ما فى ذلك النسخ والتحويل من الابتلاء للناس والتفرقة بين الصالح والطالح ، والتمييز بين المؤمن الصادق الذى فى قلبه مثل الجبال من الايمان ، والمؤمن الكاذب الذى فى قلبه مثل السراب من الايمان . (٢) « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ، وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ، وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم » .

---

[١] هذه هى شبهة النسخ التى كثيرا مالهج اليهود بها وكذبوا النبى من أجلها . وفى الرد عليها يقول تعالى « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ، ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير » . ويقول « وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون . قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » . ويقول « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب »

[٢] سورة البقرة الآية ١٤٣

مكتبتنا العربية

ولما قال اليهود ما قالوه طمعا فى عودة الرسول إلى قبلتهم ، وعرضوا عليه إيمانهم به ثمنا لتلك العودة، بصر الله نبيه بمكائدهم ، وكشف له عن حيلهم وحذره العودة إلى قبلتهم وأيأسه من إيمانهم به . فقال له (١) «ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك، وما أنت بتابع قبلتهم ،وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين .» ما زال للجدال فى شأن القبلة عرق ينبض، ودائرة تتسع ،كأن لم يكن النبى بعث إلا بها ولا أرسل إلا من أجلها ، حتى المسلمون أنفسهم ما لبثوا أن قالوا كيف حال إخواننا الذين ماتوا على القبلة القديمة ؟ فما هو إلا أن أنزل الله آية واحدة صار كل كلام بعدها من لغو القول وفضول الحديث ، وإلا فما عسى أن يقول قائل أيا كانت نزعته بعد أن يسمع قول الله [٢] «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل الشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

نعم إن هذه الآية الكريمة كانت بمثابة الكلمة الختامية فى هذا الموضوع أسدلت عليه الستار بعد أن أبانت أن مسألة القبلة ليست بالأمر الذى يبذل فيه مثل هذا المجهود الكبير ، لأن وجوه البر ليست منحصرة فى ذلك ، فكم من البر فى الصلاة والزكاة والصدق فى العهد والصبر فى البأساء والضراء ، وبذل المال لذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ؛ والتوجه شرقا أو غربا ليس مما يحسب له فى قائمة التقوى حساب ما دام غير مصحوب بالايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين . ؟

---

[١] سورة البقرة الآية ١٤٥

[٢] البقرة الآية ١٧٧

أبو عبيدة

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز موسى
واعظ القاهرة

أبو عبيدة بن الجراح فاتح الشام ، من صميم قريش ، فهو وليدها أبا وأما ، ونسيجها لحما ودما ، وعنوانها شرفا ومجدا . نشأ هادئا ومترفا ، وكانت حياته حياة صحراوية ؛ والذى ينشأ فى الصحراء إما أن يكون ماجنا غارقا فى اللهو والعبث مسترسلا فى الشهوات واتباع الهوى الى أبعد مدى ، وإما أن يكون مفكرا فيما حوله مدققا النظر فيما يرى وما يبصر بفكره الى أقصى ما ترجوه نفسه من سمو وصفاء . كان أبو عبيدة من النوع الثانى ، ولم يصرفه عن تلك الغايات السامية ما هو فيه من نعيم وترف . ترى من سيرته أنه كان يفكر فى هدوء ، ويرنو إلى ما حوله بامعان وبتدبر عميق . وفى مقتبل حياته اشتغل بالتجارة ، وسافر الى الشام ، وخطا فيها بخطواته كفرد عادى ، وما كان يدور بخلده أنه سيدخلها فاتحا موفقا ، ولا أن يكون أميرا لها عادلا فى حياته المستقبلة ، وقد أرهبها فاتحا ، وأمنها حاكما ، بعد أن كان يخشى بأسها تاجرا ، فدار الفلك دورته ، وتبدل الحال غير الحال :

فهان فى عينه ما كان يكبره من الأكاسر والدنيا بأيديها

وعندما ناهز الثلاثين من عمره سمع حديث النبوة ، وحادثه فى شأنها أبو بكر الصديق ، وبينما هو يحادثه إذا بشعاع الايمان يحلق فوق سماء قلبه ، وعلى أثر ذلك صافح محمدا صلوات الله وسلامه عليه ، وآمن بربه ، وسجل له التاريخ أنه من الذين آمنوا بمحمد وبرب محمد صلى الله عليه وسلم فى الرعيل الأول ، ولقى فى سبيل ذلك ما لقى من عنت بالغ من أهله وعشيرته وذويه ، وكان كل من أسلم مبكرا يرى ذلك العنت الشاق على النفس .

وعندئذ فكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هجرة المؤمنين إلى مكان قصى ، يفرجون به عن أنفسهم ، فاختار للمؤمنين الهجرة الى الحبشة فهاجروا

مكتبتنا العربية

إليها ، وكان من بين هؤلاء أبو عبيدة بن الجراح ، وقد لقى المسلمون من النجاشى صدرا رحبا وإكراما بالغا مرى عن المسلمين آلامهم ، وخفف عنهم أشجانهم ، وما زالوا هناك حتى بلغهم نبأ هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة ، فعندئذ غادر أبو عبيدة الحبشة ميمما المدينة ليجاهد مع المجاهدين ، ويناضل مع المناضلين فى سبيل الله ، سبيل نصرة الاسلام .

ولما وصلها صافحه النبى صلوات الله وسلامه عليه مصافحة حارة ، وعانقه عمر بن الخطاب عناقا يدل على صادق الود وخالص الوفاء . وبعد ذلك كانت غزوة بدر الكبرى التى أظهر فيها أبو عبيدة البطولة الكاملة ، فانه خاض معاركها بقوة لا تعرف هوادة فى سبيل العقيدة ، وقلب لا يعرف ضعفا فى سبيل الحق . فى هذه الغزوة تعرض له والده المشرك وكلاهما يحمل سيفه ، هذا يناضل عن الحق الأبلج ، وذلك يدافع عن الباطل اللجلج . الوالد ينسى حق البنوة فى سبيل وثنيته ، والابن ينسى حق الأبوة فى سبيل عقيدته . ولكن الابن كان بارا بأبيه فكان والده إذا لقيه فى المعمعة يشيح بوجهه عنه ، ولكن الوالد كان يعترضه المرة بعد المرة حتى ضاقت نفسه به ذرعا فنازله فقتله .

فلمس رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصرته وقال : إن ها هنا خويصرة مؤمنة ! وأشار الى كتفيه وقال إن ها هنا لكتفين مؤمنين ! وقد قدره الوحى الالهى حق قدره ، وأنزل الله فيه قرآنا يسجل به ذلك الحادث الرهيب فقال سبحانه وتعالى : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه » . وفى غزوة أحد وصل فريق من المشركين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشج وجهه الشريف وكسرت رباعيته ، ودخلت حلقتا المغفر فى وجنتيه ، وكان أبو عبيدة من الثابتين فى هذا الموقف ، وعرض نحره للسيوف والرماح فداء لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وأخذ أبو عبيدة بثنيته إحدى حلقتى المغفر فنزعها وسقطت ثنيته هو ، وأخذ الحلقة الأخرى بثنيته الأخرى فأخرجها وسقطت ثنيته هو . ومن جراء ذلك

مكتبتنا العربية

كان أبو عبيدة أثرم . وهذا منتهى الاخلاص لنبيه . هكذا أبو عبيدة كان دائما فى مواقفه ، مرفوع الرأس ، موفور الشجاعة .

شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة الأحزاب وفتح مكة وحنين وغيرها ، ولم نره فى ذلك كله الا مقبلا مصمما ، ولم نره فى قت ما مدبرا . وكان ينظر اليه دائما بعين ملؤها الإكبار والاجلال والتقدير . وكذلك أرسله الى بنى ثعلبة فى عدد من الأنصار والمهاجرين ففروا من وجهه وعاد بما تركوا من متاع الى المدينة ، وكان حليفه التوفيق والنصر على الدوام . لهذا وثق به الرسول صلى الله عليه وسلم ثقة غير محدودة ، فجعله نائبا عنه فى وفد نجران . قدم وفد نجران الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد حوار طويل قالوا : يامحمد ابعث لنا من يأخذ لك الحق ويعطيناه ، فقال : والذى بعثنى بالحق لأرسلن معكم القوى الأمين ! وردده ثلاثا ، ثم قال قم يا أبا عبيدة . وقد روى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل أمة أمين ، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » .

كان أبو عبيدة ينكر ذاته ولا يحفل بها فى سبيل الواجب العام ؛ من ذلك أن عمرو بن العاص طلب مددا من رسول الله وهو فى ذات السلاسل ، فبعث اليه مددا من المهاجرين والانصار وفيهم أبو بكر وعمر ، وأمّر عليهم أبا عبيدة ابن الجراح ، فلما قدموا على عمر قال : أنا أميركم ، فقال المهاجرون : بل أنت أمير أصحابك وأبو عبيدة أمير المهاجرين . فقال عمرو : أنتم مدد أمددت به . فقال أبو عبيدة إن آخر ما عهد الىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ؛ وإنك إن عصيتنى لأطيعنك ! وسلم أبو عبيدة الامارة لعمرو بن العاص . فهذا مثل من أمثلة نكران الذات فى سبيل المصلحة العامة .

وهاك مثل آخر ؛ فى يوم السقيفة قال عمر لأبى عبيدة : هلم أبايعك بالخلافة فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنك أمين هذه الأمة . فقال أبو عبيدة كيف أصلى إماما وخلفى رجل أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤمنا

مكتبتنا العربية

حين قبض ؟ ! يعنى أبا بكر ، وهكذا كانت حياته كلها سلسلة اتصلت حلقاتها وصيغت من السمو والنبل والشجاعة .

فذاك خلق من الفردوس طينته الله أودع فيها ما ينقيها
لا الكبر يسكنها لا الظلم يصحبها لا الحقد يعرفها لا الحرص يغويها

آلت الخلافة الى أبى بكر فأخذ ينظم شئون الخلافة فى الجزيرة العربية ، ولما استقر له الحال طمحت نفسه الى فتح الشام ، فدعا الناس وصعد على المنبر وقال : « لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ؛ ثم قال : اعلموا أيها الناس أن رسول الله عول على أن يصرف همه الى الشام فقبضه الله اليه واختاره لديه ، ألا وإنى عازم على أن أوجه المسلمين الى الشام بأهلهم ومالهم » وجهز أبو بكر الجيوش ووجهها الى الشام وجعل القيادة العامة لأبى عبيدة بن الجراح ، ومضى أبو عبيدة لما عهد اليه ، وأخذ ينتصر نصرا يعقبه آخر ، والخليفة يمده بالأمداد المتلاحقة ، ولما فقد ما عنده من الرجال أنجده بخالد بن الوليد من العراق ، وكان منتصرا هناك . فزحف الى الشام ، وتولى القيادة العامة وتنازل له عنها أبو عبيدة عن طيب خاطر . وما زال الجيش يعمل متساندا يهدف الى النصر فى تلك البلاد ، وما زالوا ينتقلون من فوز الى فوز ؛ وبينما الحرب قائمة على قدم وساق إذا بأبى بكر قد توفى ، وانتهى أمر الخلافة الى عمر بن الخطاب ، فأصدر أمره بعزل خالد بن الوليد من القيادة وإسنادها الى أبى عبيدة ، وأرسل رسالة بذلك الى أبى عبيدة مع رسول خاص ، فوصلته وواقعة اليرموك على أشد ما تكون ، فأبت حكمة أبى عبيدة عليه أن يسلم هذا الكتاب إلى خالد والمعركة قائمة ، ولما كتب الله النصر للمسلمين أخبره بالأمر ، فتقبله خالد بالرضا والقبول ، وعاد يعمل جنديا تحت راية أبى عبيدة ، وهكذا يكون خلق الإسلام ، لأن هؤلاء الصناديد لا يعملون إلا لهدف واحد وهو النصر ، أيا كان لونهم فى العمل .

وسار الجيش فى طريقه قدما متحدا متضامنا حتى وصلوا الى أسوار دمشق ، فلانت لهم الأسوار ، وخضعت لهم الحامية ، ودخل المسلمون مدينة الروم التاريخية ؛ ولما بلغ ذلك الفتح المبين عمر ، أصدر أمره برد جيش

مكتبتنا العربية

العراق إلى العراق . فأرسله أبو عبيدة واستبقى خالدا معه . ثم أخذ ينظم البلاد وينشر فى ربوعها الأمن والسلام والطمأنينة ، وبعدذلك ولاه الخليفة أميراً على الشام فشرع ينشر فيها لواء العدل ، ويسوسها بحكمة ، على أساس أن الناس كلهم إخوة لا تفاضل بينهم . وفى أيامه استقر النظام ، واستتب الحكم ، وشعرت البلاد بجمال العدالة وحسن السياسة والكياسة .

وما زال يحكم البلاد بحكمة وكياسة حتى شعر الناس بالفارق العظيم بين حكم الاسلام وحكم غيره . وفى أيامه انتشر الطاعون فأصيب به ولحق بالرفيق الأعلى سنة ثمان عشرة هجرية ، وعمره ثمان وخمسون سنة . ولم يترك ذرية من بعده ، ودفن بغور الأردن ، وقبره معروف هناك .

جالت هذه الذكريات فى نفسى عند ما نزلت بالشام فى صيف عام سنة ١٩٤٦ الميلاد ، وليس ذلك كل ما جال بخاطرى ، إنما هى لمحة خاطفة من وحى الذكريات أحررها عن مثل من المثل العليا التى تربت فى أحضان الاسلام ونشأت على مبادئه القويمة وتخلقت بأخلاقه الكريمة .

إن الموت عند دنوه منه لم يشغله ذلك عن واجبه الأقدس ، فقال لمن حضر : اقرؤا أمير المؤمنين السلام ، ثم التفت الى من حوله وقال : إنى موصيكم بوصية إن قبلتموها لن تزالوا بخير : أقيموا الصلاة وآتو الزكاة وصوموا رمضان ، وتصدقوا ، وحجوا واعتمروا ، وتواصوا وانصحوا لأمرائكم ولا تغشوهم ، ولا تلهكم الدنيا فان امرأ لو عمر ألف سنة ما كان له بد من أن يصير الى مصرعى هذا الذى ترونه . الله كتب الموت على بنى آدم فهم ميتون وأكيسهم أطوعهم له ، وأعملهم ليوم معاده ، والسلام عليكم ورحمة الله . ثم صاح يا معاذ بن جبل : صل بالناس ، وصعد ذلك النور الذى ملأ الدنيا ضياء والكون سناء . فقام معاذ وقال : أيها المسلمون فجعتم برجل ما أزعم أنى رأيت أبر صدرا ، ولا أبعد من الغائلة ، ولا أشد حبا للعامة ، ولا أنصح لهم منه ، فترحموا عليه رحمه الله ! رحمه الله رحمة واسعة !

مكتبتنا العربية

العدالة فى الاسلام

من عدالة أمـــير المؤمنين

عمر بن الخطاب رضى الله عنه

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد على منصور

من علماء الأزهر

---

١ -- عمر بن الخطاب وجبلة بن الأيهم :

اشتد الزحام حول الكعبة فى موسم الحج ، ووسط هذا الزحام أخذ جبلة ابن الأيهم من ملوك الشام يطوف بالبيت ؛ فداس أعرابى طرف ردائه من غير قصد ؛ فامتلأ قلب ابن الأيهم غيظا ، ولطم الاعرابى على وجهه ، فأصرها فى نفسه ، ثم شكاه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؛ فأمر عمر باحضار جبلة ، ولما مثل بين يديه حكم عمر عليه بأن يقتص منه الاعرابى ويضربه كما ضربه ؛ فعظم الأمر على جبلة ، وقال : كيف ذلك يا أمير المؤمنين وأنا ملك وهو سوقة ؟ !

فقال عمر : إن الاسلام قد سوّى بينكما . فقال جبلة : أمهلنى ليلة حتى أنظر فى أمرى ، وكان يرجو أن يغير حكم القصاص ، أو ينسى الأمر ، ولما أقبل الليل ، ورأى جبلة أن عمر مصمم على تنفيذ حكم القصاص ، غادر البلاد وفر من وجه العدالة .

فأى عدل وراء هذا العدل ؟ وأية مساواة بعد هذه المساواة ؟ يحمل جبلة ابن الأيهم الكبر وعدم احترام الناس ، على لطم الاعرابى الذى لم يجن ذنبا يؤاخذ عليه ، وينظر أمير المؤمنين فى القضية فيأخذ بحق الضعيف وينصر المظلوم ، ولا يحابى رئيسا لرياسته ، ولا يهمل فقيرا لفقره ؛ وينصف الاعرابى من جبلة غير ناظر إلى ما هو فيه من جلال الملك وأبهة الحكم .

مكتبتنا العربية

ويختار وقت الحج للمقاصة ، وهو الوقت الذى يجتمع فيه الناس من كل صوب وحدب ، ليضرب للحاضرين عامة ، وللولاة والحاكمين خاصة ، أكبر مثل فى التمسك بأهداب العدالة ، واحترام الغير ، والأخذ بحق الضعيف والمسكين ؛ وليعلن للناس كلهم أنهم أحرار لاسلطان لأحد عليهم إلا بحق الله تعالى ، وهذه بلا جدال ، سياسة قيمة ، وتدبير عظيم .

٢ — عمر وزيد بن ثابت رضى الله تعالى عنهما :

ولى زيد بن ثابت القضاء فى أيام عمر ؛ فدخل عليه أبى بن كعب . وعمر بن الخطاب خليفة المسلمين ليحكم بينهما فى قضية ، ولما رأى زيد بن ثابت أمير المؤمنين عمر قام من فوره ، وتخلى له عن أحسن مكان فى الحجرة . فغضب عمر ، وقال : هذا أول جور فى حكمك ، والواجب أن أجلس بجانب خصمى ! فأجلسه زيد بجوار أبى . ولما انتهى زيد من الحكم ، قال له عمر : يا زيد : لا يكون القاضى عادلا إلا اذا تساوى عنده الرئيس والمرءوس .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

لقد أشرق النور المحمدى على قلب عمر ، فطبعه على العدالة ، وصيره أكبر مثل للمساواة والانصاف ، يختصم هو وأبى بن كعب الى قاض من قضاته بيده توليته وعزله ، فيتنحى القاضى لعمر عن أحسن مكان فى حجرة القضاء ، فيأبى أمير المؤمنين إلا أن يجلس بجانب خصمه ، ويحمل قاضيه على اتباع الحق ، والمساواة بين الخصوم ، وفى هذا عدل مجسم ، وإنصاف عظيم .

٣ — رسالة عمر لأبى موسى الأشعرى فى القضاء :

اختار عمر أبا موسى الأشعرى قاضيا للبصرة ، ثم كتب له رسالته الخالدة فى القضاء ؛ ولا تزال الدستور الفريد الذى يحتذيه القضاة فى أحكامهم ، ويهتدون بهديه ، وفيها يقول أمير المؤمنين :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، الى عبدالله بن قيس : سلام عليك . أما بعد فان القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة .

مكتبتنا العربية

فافهم إذا أدلى (١) إليك ، فانه لاينفع تكلم بحق لا نفاذ له . آس (٢) بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك (٣) ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .

البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحا أحل حراماً ، أو حرم حلالا ، لا يمنعنك قضاء قضيته اليوم ، فراجعت فيه عقلك ، وهُديت فيه لرشدك ، أن ترجع الى الحق ؛ فان الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل .

الفهم الفهم فيما يتلجلج (٤) فى صدرك ، مما ليس فى كتاب ولا سنة (٥) ؛ ثم اعرف الأشباه والامثال ، فقس الأمور عند ذلك ، واعمد الى أقربها الى الله ، وأشبهها بالحق . واجعل لمن ادعى حقا غائباً أو بينة ، أمداً ينتهى اليه ؛ فاذا أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا استحللت عليه القضية ؛ فأنه أنفى للشك وأجلى للعمى .

المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً فى حد ، أو مجربا عليه شهادة زور ، أو ظنيناً فى ولاء أو نسب ؛ فان الله تولى منكم السرائر ، ودرأ بالبينات والايمان [٦] . وإياك والقلق والضجر ، (٧) والتأذى بالخصوم ، والتنكر عند الخصومات ؛ فأن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر . فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ؛ ومن تخلق (٨) للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه ، شانه (٩) الله ؛ فما ظنك بثواب غير الله عز وجل ، فى عاجل رزقه ، وخزائن رحمته (١٠) ؛ والسلام .

[١] أدلى اليك : تقدم اليك المتخاصمون بحجتهم . [٢] آس بين الناس : سو بينهم
[٣] الحيف : الميل ، أى ميلك مع الشريف لشرفه . [٤] يتلجلج . يتردد حتى كان موضع حيرة
[٥] الكتاب : القرآن الكريم ، والسنة : ما أثر عن النبى من قول أو فعل أو تقرير .
[٦] الظنين : المتهم ، ودرأ : دفع ، يريد منع الحدود .
[٧] القلق والضجر : ضيق الصدر وقلة الصبر .
[٨] تخلق : أظهر للناس ما ليس فيه .
[٩] شانه الله : قبحه وفضحه وأظهر نفاقه .
[١٠] فما ظنك الخ : يريد ماذا يكون ثواب الناس بجانب رزق الله فى الدنيا ورحمته فى الآخرة .

مكتبتنا العربية

٤ — عمر والمرأة العربية :

رأى عمر تغالى الناس فى المهور ، فأراد أن يضع لها حدا ؛ فصعد المنبر ، وشرع يتكلم فى ذلك ، فقامت امرأة وقالت : كيف تفعل هذا وقد قال الله تعالى : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً » ! . فرجع أمير المؤمنين عن رأيه ، وقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

فمن يحاكى أبا حفص فى هذا الأمر ؟ أو من يحاول لابن الخطاب تشبيهاً فى هذه الحادثة ! يرى التغالى فى المهور ، ويعلم ما يتبع ذلك من عدم الرغبة فى الزواج ، فيحث الناس على تقليل المهور ، حتى يفتح باب الزواج على مصرعيه ، وتنبهه امرأة لا رجل إلى حق فيتبعه ، ويرجع عن رأيه أمام الجم الغفير من الناس ! إن فى هذا لعبرة لمن يعتبر .

٥ — حرص عمر على مال المسلمين وشعوره بالمسئولية :

لقد كان عمر حريصاً كل الحرص على مال المسلمين ، شديد التقوى والزهد عظيم الشعور بالمسئولية ؛ اشتهت زوجه الحلوى ذات مرة ، ولم يكن عندها ما تشتريها به ؛ فوفرت من قوتها شيئا قليلا كل يوم ، حتى صار عندها من المال ما يكفى لشراء الحلوى التى تريدها . ولما أخبرت عمر بذلك أخذ ما وفرته وردها إلى بيت المال ، ونقص من راتبه — على قلته — مقدار ما كانت توفره كل يوم ! .

وكثيراً ما كان عمر يستشعر المسئولية العظمى الملقاة على كاهله ، ويقول: لو أن جملا هلك ضياعاً بشط الفرات لخشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب ! .

فأى حرص على مال المسلمين ، وأى شعور بالمسئولية أعظم من هذا ؟ وأى قلب رحيم يحمله عمر بين جنبيه ؟ فياليت الرؤساء يقتدون به ، فينصفوا قومهم ، ويعملوا على إسعادهم ، ويجعلوهم شغلهم الشاغل ، وأمرهم المقيم المقعد .

ورضى الله تعالى عنك ياعمر ! فلقد كنت — بحق — بطل الاسلام ، وقائده المغوار ، وخليفته الأمين ؟

طيف مصر

مهداة إلى الأستاذ أبي العيون

من شاعر رجعي

أمـلٌ كما خفقتْ بروق خُلب ... طفل يصيح به ، وشيـخ يكذب
كذبت أمان لم يشرّد دونهـا ... نوم ، ولم يُشلم لسيف مضرب
سجعَ الحمام ، فما استرد هديله ... شـجو يردده وحـزن يغـلب
والنـوح أتفه ما بذلتَ معونـة ... لمعذب فى دائـه يتقلب

* * *

ناجيتُ مصر ، فاملكت محاجرى ... والخطب لا ينفيه دمـع يسكب
هتف الهـوى برجالها فتجمعوا ... حـتى إذا هتف الجهاد تشعبوا !
إن يخطبوا ، فالخطب فيما يُخطب ... أو يكتبوا ، فالقَـذع فيما يُكتب
عمـرو ينازل بالمثالب خالدا ... وسعـاد تحتث الصفوف وزينب
من كل مفـلول العزيمـة خائم ... حـرباء فى ألوانه يتـذبذب
طَـبنٌ بمختلف السباب يصوغه ... « ثرثارة فى كل ناد يخطب »
أسد إذا احتدم الجدال مقذّف ... أما إذا احتدم الـنزال فأرنب
شِيـع تَـلاعنُ لا ينهنه غـيّهـا ... خلق ، ولا يدنى لرشـد منصب
ومحمّـق والعى مـلء إهـابه ... يسمو إلى الشرف الرفيع وينعَـب !
غفـل الزمان فساد غـير مسوّد ... والماء إن يسكن علاه الطحلب
أقسمت لو نعطىَ على أفهامنـا ... أربى على بعض الرجال الجُندب

* * *

وخريدة كالدر فى أصدافـه ... والكف رَخص ، والبنان مخضب
ملكت جـلالتها أريكة بيتها ... لا غاصب يدنو ، ولا متغلب

مكتبتنا العربية

تختال بين رياشه وقطينه ... كالشمس تشرق فى الجلال وتغرب
القلب ملك يمينها ، والمال تحـ ... ـت نعالها ، والروح فيما تطلب
برزت بميدان السياسة سافرا ... تتقحم الأهوال ما تتهيب
تدلى بمنطقها ، وعذب حديثها ... وتظل تخطب فى الجموع وتسهب
فكأنما ملك يخاطب جنة ... فمقدس لجلاله ، ومقرب . . .
أخت الغزالة إننى لك واثق ... وعليك من حسك السياسة أحدب
روض السياسة شائك ، وطريقها ... وعر ، ومركبها ـ فديتك ـ أصعب
صونى جمالك واحفظيه ، فإنما ... حق الجمال من السياسة أوجب
البيت أفضل ـ لو علمت ـ رعاية ... وأجل فى مجد الفتاة وأهيب
فابنى به الأخلاق صرحا شامخا ... تتخرب الدنيا ولا يتخرب
وارعى بنيك فهم عماد مكارم ... وسداد عادية ، وغرس طيب
ما الشعب إلا بالبيوت فإن هوت ... غشى شوارقها المضيئة غيهب
قالوا : الحجاب ، فقلت : تلك سخافة ... أرأيتم شمس الضحى تتحجب ؟
قولوا : الفضيلة ، لا تقولوا غيرها ... فسلاحها عند الدفاع مجرب
لا خير فى حجب بغير فضيلة ... فى الليل أكثر ما تدب العقرب
يا طيف مصر ، وأنت أكرم مرشد ... قل لى : بأى طريقة أتمذهب ؟
قام الشجار على المذاهب بيننا ... حزب نؤيده ، وآخر يشجب
كل يعزز فى السياسة دينه ... والخصم يشرب فى البلاد ويطرب
غلب الهوى ، وسرت بمصر سمومه ... فمضت بمقصدها المقدس مغرب
أبنى أبى ، مصر الغداة لما بها ... فابكوا مفاخرها المخيلة أو ثبوا
أنتم فوارسها ، وأنتم داؤها ... والداء أقتله النصيب الأقرب
حبل الخصام الى انفصام ، والهوى ... سهم بمنتضل العظائم أخيب

* * *

يا سائق الوجناء يحدو خلفها ... أعلى صراط الرشد أم تتنكب ؟
خل الحداء ، فقد مللنا كأسه ... وانظر ، لعل طريقنا لا يركب
الجو معتكر الجوانب حالك ... والدرب وعر ، والصحاب تشعبوا

مكتبتنا العربية

ألا أهبت بهم فيرشدَ حائر ويسير وقاف ويلحق متعب ؟
الفرد أدنى ما يكون ضلاله والجمع أدنى للرشاد وأقرب
والجيش مالم تأتلف وحداته مهما توافر جمعه لا يغلب
الله يعلم أنى لك وامق يا مصر إلا أننى أتجنب
لي فى هواك مواقف صخابة الفضل يقضيها علىّ ويوجب
لا أبتغى الزلفى لديك بذكرها لكن بمحض بنوتى أتقرب
أمنيتى لك أن يوفق قائم بالأمر فيك ، وأن يتم المطلب

دعابات شعرية

قال المتنبي : دخل ابن دعبل على بشر بن مروان لما تولى الكوفة ، فقعد بين السماطين ، ثم قال : أيها الأمير ! إنى رأيت رؤيا فأذن لى فى قصصها . فقال قل . فأنشد :

وأغفيت قبل الصبح نوم مسهد فى ساعة ما كنت قبل أنامها
فرأيت أنك رعتنى بوليدة مفلوجة حسن علىّ قيامها
وببدرة حملت إلى وبغلة شهباء ناجبة يصر لجامها

قال له بشر بن مروان : كل شيء رأيت فهو عندى إلا البغلة فإنها دهماء فارهة . فقال ابن دعبل : امرأتى طالق ثلاثا إن كنت رأيتها إلا دهماء إلا أنى غلطت !

وروى الشيبانى عن البطين الشاعر أنه قدم على على بن يحيي فكتب إليه :

رأيت فى النوم أنى راكب فرسا ولى وصيف وفى كفى دنانير
فقال قوم لهم حذق ومعرفة رأيت خيرا وللاحلام تعبير
رؤياك فسّر غدا عند الأمير تجد تعبير ذاك وفى الفال التباشير
فجئت مستبشرا مستشعراً فرحا وعند مثلك لى بالفعل تبشير

فأمر له على بن يحيي بكل ما ذكر فى شعره .

ناحية جديدة :

فى تفسير القرآن

لحضرة الأستاذ محمد عبد الحليم أبو زيد

من آيات إعجاز القرآن ، أن كل جيل يشرئب دائما الى محاولة الإلمام بهذه المعجزة الخالدة ، ويجهد فى اتخاذ ما تجمع لديه من معارف سبيلا للتغلغل الى بواطنها ، وسلما للارتقاء الى ذراها ؛ وقد انطوت تلك الأجيال المتعاقبة ولا تزال مجهوداتها يعوزها طابع النضج والاكتمال ؛ وقد جاء هذا العصر تهب من أردانه ريح الغرور بفتوحاته العلمية ، ويشمخ بتسلطه على كل ما استعصى ، وبيانه لكل ما استغلق ؛ ولكنه ظل واقفا إزاء هذا الحصن مطأطئ الرأس ، غاض الطرف ، وأوشك العلم أن يباعد بينه وبينه ، ولكنه يحاول الآن أن يعاود الكرة لكن فى تهيب وخشية . وساقنا الحديث ذات مساء الى هذا الموقف من العلم نحو القرآن . فقد كثر الهمس عن عمل المجمع فى هذا المجال ، وغيره من الهيئات ، فقال صاحب الرسالة : هناك نمط من دراسة القرآن لم يعهد قبل ذلك ؛ فلو كتب لهذا الجهد أن يتواصل ، لكان آية الإبداع فى هذا العصر ، ولازال كثيرا من اللبس فى تحديد كثير من ألفاظ القرآن ؛ وأضاء تلك النواحى التى يكثر فيها العناد لضآلة النور الذى يشع فيها .

هذا النوع من الدراسة هو الذى كان يقوم به الأستاذ كزنوفا فى الكوليج دى فرانس :

وقد مهد الأستاذ الطريق لمن يسير ، ووضح النهج لمن يعمل ، ويتناول جهده ألفاظ القرآن محاولا الكشف عن أرومتها ، وأطوار حياتها ، فهل الكلمة نبتت جذورها فى العربية أو فى لغة أخرى كالآرامية والعبرانية أو البابلية ؟ ومدلولها الأول ؟ وإلى أى المعانى تحول ؟ وعلى أيها استقر ؟ وبأى معنى تناولها القرآن ؟ حتى يتسنى أن تأخذ ألفاظ القرآن وضعها المحكم ، فلا اضطراب ولا تأرجح ، مما يجعل مهمة فهم الألفاظ فهما دقيقا ، عسيرة شاقة ،

مكتبتنا العربية

وفقهها القرآني يعتريه شيء كثير من الغموض ، مما يجني على تحديد المعنى المقصود ؛ كما نجد مثلا في كثير من الكلمات لا يزال معناها موضع أخذ ورد بين العلماء مثل « وقولوا حطة » « والأميون » ، وغيرها وقد أخذ الأستاذ كرنكو ألفاظ القرآن لفظا لفظا ؛ فمثلا يبتدىء بـ (الم ذلك الكتاب) ، فيأخذ لفظ الكتاب ويبحث هل أصله عربي ؛ أم لا ؛ فاذا كان عربيا فماذا كان معناه في لهجته العربية ؟ وهل استعمله القرآن على سنة العرب ، أم عدل به الى نحو آخر من التعميم أو التخصيص ، أو المجاز ، أو الكناية .

وإذا كان قد نشأ في لغة أخرى كالعبرانية أو البابلية ؛ فماذا كان معناه في هاتين اللغتين ؟ وكيف تطور فيهما ؟ وما الصورة التي نقل بها إلى العربية وما معناه في العربية ؟ وما المراحل التي قطعها حتى ألقى عصا تسياره بين ألفاظ القرآن ؛ حتى إذا فرغ منه أردفه بلفظ غيره فيسير به سيرته مع اللفظ الأول . فتصور لو ظفر القرآن بهذه الدراسة فأي فوز كانت غنمته الدراسات العربية عامة ، ودراسة القرآن خاصة ، وغدا مصورا عظيما لتفسيره تفسيرا لا مجال فيه للتخبط والاحتمال ؟ وقد فرغ الأستاذ مما يقرب من جزء على هذا المثال .

أما كان يجدر بأن نعنى بنشر هذا الجزء ليكون وفاء للقرآن واعترافا بجهود العلماء ، ونموذجا يحتذى ، ومشروعا يجب أن يتم ؛ وقد بدت عندنا طلائع نهضة في العناية بدراسة هذه اللغات ، وعندنا من يحذقها . فلم لا يتوفر هؤلاء العلماء ، يعاونهم بعض المستشرقين ، ممن لهم بحوث في هذه الجوانب ؟ وإذا لم يكن عندنا الآن ، فلم لا نعد العدة لمثل هذا العمل الخطير ؟ ونأخذ في العمل أو في تحضيره لنقدم الدليل على أننا أمة تعتز بكتابها أولا ، وبالعمل ثانيا ، ولا نألو جهدا في سبيلها ولنثبت أننا أمة حية متوثبة ، وإلا فبماذا يحكم علينا التاريخ ، وقد قام يحاول هذا العمل رجل لا تدفعه العقيدة به ، بل يحفزه الوفاء للعلم ، وخدمة الانسانية ؛ فهل هذا الحديث يثير بعض من يملكون تأدية هذه الرسالة أو على الأقل تهيئة الجو لها ، والعمل على نشر هذه الباكورة وإذاعتها ليرى المسلمون كيف يخدم القرآن والدراسات الاسلامية ، وبأي أسلوب علمي تكون الخدمة ؟ ؟

فتوى شرعية

فى مأتم الأربعين ، وما يصل نفعه للميت من أعمال الطاعات

استفتى حضرة الأستاذ حافظ البديوى المحامى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ العلامة الجليل الشيخ حسنين مخلوف مفتى الديار المصرية ، فى موضوع الاحتفال بذكرى الأربعين ، فتفضل فضيلته باصدار فتوى فى ذلك نشرت خلاصتها بالأهرام فى اغسطس الماضى ، فكان لهذه الكلمة الجليلة أثر عظيم فى نفوس العقلاء الذين يرجون أن يتجرد المجتمع الاسلامى من البدع التى ألصقها به الجاهلون ، وأقرهم عليها بسكوتهم العالمون . ومضى من لم يقرأ تلك الفتوى القويمة يتطلبها ولا يجدها ، وشعر فضيلة الأستاذ الجليل بهذه الحاجة الملحة فرأى أن يأمر بطبعها ، وأهدانا فضيلته بنسخة منها ، فتصفحناها فاذا بها لم تقتصر على ما جاء فى جريدة الأهرام من ملخصها ، بل نشرت برمتها .

ومما زاد فى قيمتها ، وجعلها من الأمور الواجب الاطلاع عليها ، أن فضيلة الأستاذ الجليل ، وضع عليها تعليقات هامة تمس الحاجة إليها ، فاشتملت فيما اشتملت عليه : على أحوال الروح فى البرزخ ، الحياة فى القبر ، السؤال فيه ، والدعاء للميت ، والتصدق عليه ، والحج والصوم عنه ، والقراءة له الخ الخ .

هذه كلها أمور يحسن أن يعرفها الناس معرفة صحيحة ، بعيدة عن الخلط والخبط فيها كما يفعل كثير من الناس اليوم وقد انتحلوا لهم عادات غير إسلامية ، مما ورد فى الاسلام التحذير الشديد منها .

كل هذا أتى عليه فضيلة الأستاذ الجليل فى رسالته بأوضح أسلوب وأبلغه فكان عملا كريما نرجو أن يعم الانتفاع به . وأن يقف المسلمون عند حدوده ، فلا ينتحلوا ماليس فى سنة نبيهم ، ولا أعمال سلفهم .

وإنا فى هذا المقام نثنى على حضرة صاحب الفضيلة المفتى الثناء الذى يستحقه إمام جليل مثله تصدى للبدع الشائعة فدحضها ، وللتقاليد الضارة فنقضها ، راجين له الله أن يثيبه ثواب الأئمة العاملين ، وأن يبقيه ذخرا للدين .